(ثلاثية صانع الفخار (رواية

أحمد ضحية

(رواية عن الأسرار العاطفية للبلاد الكبيرة كما تناقلها رواة سوق ود أمجبو والمقابر الورا السوق الصغير حول صراعات النساء ومصطرعات الرجال في المدينة القديمة وتاريخها الغامض).

الجزء الأول: آلام ذاكرة الطين

إهداء:

إلى أرواح شهداء ثورة دارفور المستمرة منذ ٢٠٠٢

وإلى ارواح شهداء هبة ٢٣ سبتمبر ٢٠١٣ المجيدة،

و إلى الكائن العجيب، الصديق إبراهيم خضر حمد

أحمد

يحكى أن تاجرا زوج ابنتيه. واحدة إلى فلاح، والأخرى إلى صانع فخار..

و بعد عام سافر الرجل ليزور ابنتيه، فقصد أولا زوجة الفلاح. التي استقبلته بفرح. وحينما سألها عن أحوالها، قالت:

– زوجي استدان ثمن البذور، واستأجر أرضا وزرعها. فإذا أمطرت السماء، فنحن بألف خير. وإن لم تمطر فإننا سنتعرض إلى مصيبة!!

فتركها وذهب لزيارة ابنته الأخرى.. زوجة صانع الفخار. التي استقبلته بفرح ومحبة. وفي جوابها على سؤاله عن الحال والأحوال أجابت:

– زوجي اشترى ترابا بالدين، وحوله إلى فخار. ووضعه تحت الشمس ليجف، فإن لم تمطر فنحن بألف خير وإن أمطرت فإن الفخار سيذوب وسنتعرض إلى مصيبة.

عاد الرجل إلى زوجته التي سألته عن أحوال إبنيتها فقال لها:

إن أمطرت ألطمي خدك ونوحي وإن لم تمطر ألطمي خدك ونوحي!

هذا هو حال صانع الفخار مع البلاد الكبيرة. فلدى استيلاء الحاكم العام على السلطة ذات فجر بعيد. أعلن الحاكم العام في بيانه الأول، أنه سيحول البلدة إلى جنة أرضية. ينعم فيها أهالي البلاد الكبيرة بالرخاء والرفاهية والسلام. حتى أن بإمكان الذئب أن يتآخى فيها مع الحمل. فينام الجميع قريري العين هانئيها. ولم يمض سوى وقت قليل، حتى ذهبت كل وعود الحاكم العام أدراج الرياح! فقد تتالت كوارث الطبيعة، واجتاحت الأوبئة البلاد الكبيرة تحصد الأرواح دون رحمة، واشتعلت الحروب في دار الريح والصعيد ودار صباح. فأصيب الناس بالفزع وفقدوا صوابهم. إذ ما عادوا يجدون ما يأكلون أو قطرة ماء يشربونها، بعد أن تقلصت وجباتهم اليومية إلى وجبة واحدة!!!

وكان العالم.. كل العالم يعرف بأن شعب البلاد الكبيرة، أصبح في عهد هذا الحاكم.. شعبا من المشردين والمطاريد واللاجئين والجياع! فأخذوا يرسلون لهم كل أنواع الإغاثات، من طعام وعصائر وخيام وأدوية ونقود.

لكن ظلت الأخبار كما هي لم تتغير!.. فحار أهل الخير الطيبون في الجوار والعالم الواسع! وأرسلوا عيونهم إلى البلاد الكبيرة. ففوجئوا بأن كل شيء متوفر: الأكل والشرب والعلاج والنقود.. لكنهم لم يجدوا شعب البلاد الكبيرة.. كان شعب البلاد الكبيرة قد اختفى؟!

I

"لقد أحرق العسس صانع الفخار في فناء الكنيسة العتيقة!"

قتل صانع الفخار بذات الطريقة التي أعدم بها أسلافه، من حاخامات وقساوسة كنيسة البلدة القديمة، في الأزمنة الغابرة! إذ صلبه عسس الحاكم العام على صليب من خشب "اللعوت" سيء الرائحة وأشعلوا فيه النار.

بعدها بسنوات قليلة.. عندما بدأ بعض الأهالي يفيقون من هول الصدمة، جعلوا من يوم مقتله على ذلك النحو، ذكرى سنوية. كما اتخذت كنيسة المقرن أو البلدة القديمة، من هذه الذكرى بداية لتقويم جديد. أطلقوا عليه "تقويم ود أمجبو"، الذي بمرور الوقت أصبح تقويما لإحياء ذِكرى شهداء الإيمان، المنادين ب"فصل الدين عن الدولة". وما يزال هذا التقويم يستعمله المُزارعون في برية البلاد الكبيرة الواسعة، لتتبع تغيرات الفصول الزراعية. وكذلك في التأريخ للأحداث العظيمة ك"سنة نجع الناس لديار سافل، عندما ضرب تمساح أب كبلو اللية" أو "عندما ضلت القرنتية طريقها من النهر إلى زندية، فسقتها فداديات (البريزية) المريسة"وهكذا تغلغل التقويم الجديد في كل المناشط الاجتماعية للبلدة القديمة.

"لقد أحرق العسس صانع الفخار في فناء الكنيسة العتيقة!"

اتكأت منصورة على "الصريف" حول القطية التي تتوسط الدار، وهي تجيب أمها في حزن ولوعة. لحظتها كانت كل ما مرت به في حياتها مع صانع الفخار، يتراءى أمام ناظريها وكأنها وقائع حدثت للتو. حينها كانت روح صانع الفخار تحلق، عابرة سماء الدار. تلوح بابتسامة آسية في وداعة الحزن!

في تلك اللحظة المجيدة، الغارقة في حجب التاريخ البعيد. والتي أيقن فيها جادين جانو (صانع الفخار الحفيد) أن منصورة هي المرأة التي ظل يحلم بها. بعد أن فرغ وقتها على يدي معلمه "الخزين ود طبلة" من تلقي كل ما يحتاجه المرء من معارف ضرورية بالحب والنساء، عندما تتفتق مراهقته للتو، عن غرائزها وتباغته بنهمها.

إحداهن قالت:

"إذا حلمت كرجل بصانع الفخار، فهذا لا يشكك في رجولتك، بل ينبئ عن سيرتك ومسيرتك في العمل المتواصل الدءوب، الذي سيعود بأفضل الثمار. أما إذا كان الحالم أنثى، فهذا يعني أنها ستنشغل بأمور تسعدها".

فالفخار هو مهنة الأحلام، في صراعها التليد مع الصبر على ألم لا حدود له!

لذا كان ألم منصورة في تلك الأمسية البعيدة، الغارقة في ظلمات التاريخ. والتي سبقت بليلة واحدة، تلك الظهيرة المكفهرة بمقتل صانع الفخار.. ألما خارقا للعظام والشرايين والأوردة.. تخلل روحها وتغلغل في مشاعرها، التي لم تهدأ صبواتها يوما! فقد طبع

حزنها في تلك اللحظة، بالطابع الخاص نفسه لحزن صانع الفخار!

فصارت نهبا لهموم مبهمة، لا تدري مصدرها، حرمتها النوم. فنهضت من عنقريبها و أشعلت لمبة الجاز، التي أحاط "قيطانها" سياج من الزجاج الدائري الشفاف. وأخذت تتجول جيئة وذهابا.. هنا وهناك، في فضاء "راكوبة" القطية الصغيرة التي تتوسط الدار، المزروبة "بالطرور والشوك والقنا والعيدان والشراقن". بينما أمها الغارقة في نوم عميق، كانت هي الأخرى متناهشة بالكوابيس التي تخترق أحلامها من آن لآخر!

لحظتها كان يتولَّد تدريجيا داخلها إحساس غامض.. متوتر.. من فرط هيمنته على كيانها.. كانت تشعر بجلدها يتنمل.. وكل شعرة فيه تنبت على نحو مباغت منتصبة لوحدها!

خرجت منصورة من قطيتها إلى فناء الدار. تستنشق شيئا من هواء الليل المنعش، الذي لم يبعث فيها ما ألفته من النشوة، التي اعتادتها عندما يداهمها الأرق ويتآكلها السهاد، في مثل هذه الأوقات من السنة. عندما تكون الشمس حامية طوال اليوم. فنسائم الليل كانت عادة ما تنبئ منصورة، أن فجر الغد ستشرق فيه الشمس بنفس حنانها وشجنها وحنينها الأزلي المفقود!

كانت تلك الليلة إذن، ودونا عن كل الليالي التي مرت على حياتها. ذات سموم وهواء راكد، بطريقة غير مألوفة في البلدة القديمة. حتى أنها لاحظت ظهيرة ذلك اليوم، عندما ذهبت إلى سوق ود أمجبو، المجاور لمقابر البلدة القديمة. أن شيئا ما في وجوه الناس وأشكالهم مختلف عن المعتاد! لكنها لم تستطع تحديده!

وبدت لها أوراق الشجر متساقطة بكثافة، وعندما تحملها ريح "السموم"، تنشر في الجو روائح عطنة. هي مزيج من رائحة البول والغائط والدخان والحريق.. كما لاحظت أن طيور السمبر المهاجرة، التي حطت على سماء البلدة أنها قد جاءت في غير موسمها! وقد أشاعت في نفوس الأهالي الطيبين، شعورا عارما بالقلق.. بدا لها كل ذلك ينذر بشيء كارثي غريب وشيك الوقوع!

في طريق عودتها إلى دارها، أنستها أفكارها المبلبلة، إلقاء التحية على الخزين ود طبلة، عندما مرت به وهو في مجلسه المعتاد. يتحلق حوله الناس، ليستمعوا إلى حكاياته بنهم، بدا لها هو الآخر، نهما غير مألوفا!.. سارت منصورة ببطء حتى دخلت مسكنها.

ما بالنا نقفز قفزا ونتعجل الحكي؟!.. سنأتي لاحقا لنحكي عن أحلامها وأحلامه، التي شطرها من شطرها شطرين. تاركا الفخار وصانعه، وذاكرة الطين المشتركة بينهما في حيرة تامة. إزاء اللامبالاة العامة، التي احتلت فضاء البلدة القديمة على نحو مباغت!

في مراجعة جادين جانو الحفيد، لما حفلت به منحوتات جادين جانو الجد. اكتشف أن الطين هو القاسم المشترك، بين كل حضارات البلاد الكبيرة. فأهم السمات الثقافية المميزة لهذه الحضارات، كانت أواني الفخار. التي على درجة رفيعة من الصقل. بالإضافة إلى الأواني الفخارية الأخرى، التي على هيئة حيوانات وأشكال مختلفة. إلى جانب صناعات الحديد و الخناجر النحاسية. والمصنوعات الخشبية المزخرفة في أشكال بديعة. وكذلك الملابس المخيطة على قلانس جلدية، والمصنوعات الخشبية المطعمة بالعاج والمايكا وعناقريب الخشب و"القَّد"، التي تتميز بمساند من الصوف للرأس.

تقول النبوءة.. التي اكتشفت مبثوثة في إحدى مخطوطات صانع الفخار الأكبر. أن روحه وعقله سيولدان مرة أخرى بعد مئات السنوات، في صبي يافع مغرم مثله بتشكيل الطين! كما أن روح وجمال حبيبته (الكيرا) هي الأخرى ستتقمص روح (منصورة) حبيبة المختار، الذي كشفت عنه النبوءة

وتضيف النبوءة.. أن مقتله سيكون علامة فارقة، في تاريخ وحياة البلاد الكبيرة. التي ستجد نفسها على حافة الهاوية، عند مفترق الطرق من كل أجزائها! عندما يصاب سكانها فجأة، بداء اللامبالاة. إذ يصبحون فجأة متبلدي الأحاسيس ومداهنين.. باردي المشاعر وثقلاء مملين!. جميعهم: زعماء العشائر والقبائل.. أصحاب العمل والعمال.. أهل الثقافة والفن والأدب والسياسيين.. رجال الدين وشيوخ ومريدي الجماعات والطرق والطوائف.. أرباب المعاشات.. الشباب والأطفال والنساء.. المزارعون..

حتى أن المواليد الجدد، كانوا يولدون بلا ضمير.. يخلون من تلك البراءة التي عرفوا بها. هكذا جميعهم في لحظة من اللحظات الغارقة في الأسى. المتلفعة بالعتمة. استيقظوا من نومهم، فوجدوا أنفسهم يفتقرون لصفاتهم التي توارثوها من أسلافهم، عبر آلاف السنوات.. لا مبالين بما يجري حولهم، دون أن يجدوا تفسير لما حل بهم؟

باستثناء الطبقة الحاكمة والحاكم العام وحزبه الوطني وجيشه وشرطته وعسسه وقادة مليشياته الخاصة! لم ينجو من هذا الداء حتى الزوار العابرون لسهل البلاد الكبيرة، في

طريقهم إلى مكان ما، في عالم يستشرى فيه داء الإحباط والقنوط!

لكن كان هؤلاء العابرون، ما أن يتمكنون من عبور البلاد الكبيرة، حتى يغرقون في الأسئلة، حول حقيقة نجاة الطبقة الحاكمة، فتقودهم الأسئلة إلى شكوك لا أول لها ولا آخر!

في تلك اللحظة بالذات ولد جادين جانو (الصغير).. الذي عند مقتل صانع الفخار، كان لتوه قد فرغ من تعلم المشي والكلام! إذن في تلك اللحظة التي كان شعب البلاد الكبيرة كله، قد أصيب بهذا الداء الكريه. لم يكن ثمة ناجين، ليشيدون حضارة الجنس البشري من جديد، فقط شخص واحد (وفقا للنبوءة) هو شخصيا!

كان حاكم البلاد الكبيرة سعيدا جدا، بحالة اللامبالاة والتبلد العام، الذي أصاب شعبه. لكن مع ذلك لم تفارق مزاجه تلك العصبية، التي عرفت عنه. بل رغم سعادته المتوهمة. كان في حالة أشبه بالجنون والخبال، وهو يحادث حراسه حينا وزوجاته أو وزرائه حينا آخر:

"هل أنا عصبي؟ عصبي! ربما.. لكنني لست ضعيفا!"

فيجيبه العسس ذات الإجابة المعتادة:

"كلا يا سيدي. والحق يقال أن حواسك في كل يوم يمر تصبح أكثر حدة"

وتهمس زوجاته العديدات بحنو مفتعل:

"أنت لست ضعيفا.. بل تزداد قوة أكبر في كل يوم يمر يا حبيبي"..

في الحقيقة كان وجه الحاكم العام، لم يعد قادرا على التعبير عن مشاعره الخاصة، بتلك التيارات المحتدمة في مكان ما داخله. إذ كان في كل يوم يمر يذوي أكثر فأكثر وتتكلس ملامحه.. ومع ذلك كان يقاوم قدره بشدة.. متشبثا بالحياة. رغم أنف كل قوانين الطبيعة، والزمن وواقع البلاد الكبيرة الرث البائس. وكان لتكريس نزعة الحياة التي تشبث بها دون فكاك، كان يتزوج في كل عام. ليخفي سرا شائعا في أرجاء البلاد الكبيرة! إذ كان الحاكم العام في الحقيقة مخنثا! فكان يرسل الخطاب، إلى كل أنحاء البلاد الكبيرة. ليأتونه بعروس بكر صغيرة! ظانا أن شعبه لا يعرف السر، الذي يحاول إخفاءه!

وهكذا – لصرف الشعب عن هذا السر الخطير – مضى ممعنا في إدارة البلاد الكبيرة على

هواه، مفتعلا الحروب والمجاعات والأوبئة، ليشغل بها الناس. ثم أخذ يقولب الشعب، فحول جزء كبيرا منه إلى مجموعات تراقب بعضها البعض، وتراقب في الوقت نفسه ما تبقى من الشعب، الذي أخذ يجمعه في مؤتمرات بين آن وآخر، يختمها باعتقال البعض وتعذيبهم ثم حرقهم في أفران ضخمة، صنعها خصيصا لهذا الأمر!

وكان يزجي وقت فراغه بلعب لعبة الحرب، في الصعيد ودار الريح. فيغتصب جنده النساء، بعد أن يتم قتل الرجال وحرق قطاطيهم وزروعهم! ونهب مواشيهم وتشريدهم في قبل الأرض الأربعة!

وما أن يبلغه جنده بهذه الأخبار، حتى يبدأ في شرب البنقو، الذي يغليه له طباخه الخصوصي، في براد صنع في الشرق الأقصى البعيد، خصيصا لهذا الغرض. وبعد أن "يسطل" تماما، يضجع وينام، تطارده كوابيس وخيالات الأرواح المعذبة لضحاياه.. وضحايا الحكام السابقين من أسلافه، عبر عصور وتاريخ البلاد الكبيرة. فتنتابه الحمى ويئن.. يتأوه.. ويعرق جسمه حتى يبتل فراشه بعرقه، الذي كانت له رائحة البول.

مع ذلك كان الحاكم العام حساسا جدا! فعادة عندما يتعب من فعل كل هذه الأمور، يختلي بنفسه حتى يظن الناس أنه قد فارق الحياة. فتسكن أرواح ضحاياه في مراقدها وتهدأ. ويشعر الشعب بالتحرر لبرهة، لا يلبث أن يقطعها الحاكم العام، باقتحام وحدتهم وعزلتهم، إثر الإعلان عن أحد المؤتمرات الفاشلة!

كان القادمون من تخوم دار الريح ودار صباح العابرون للبلاد الكبيرة. قد ترسخ في اعتقادهم، أنهم كالعادة سيرون شعب سهل البلاد المشرد، نائما في الدروب الوعرة، والطرق الضيقة غير الممهدة. التي تحيطها البرك والمستنقعات من كل جانب.. وهم يحلمون ببلاد سعيدة، تخلو من الحاكم العام وعسسه وجنده وحزبه الوطني!

العابرون ترسخ في ذاكرتهم أيضا مشهدا مكررا: حزب الحاكم الوطني يطارد الأهالي والمشردين، بالهراوات والعصي والأسلحة ويثخنهم ضربا و قتلا.

كان الحاكم العام بوجهه القبيح وصوته الأجش وعيونه المركبة، التي تتحرك في كل اتجاه. كعيون الذباب الأخضر.. هو المطلوب رقم واحد لعدالة العالم، بين حكاما قلائل. فالعالم نادرا ما عرف حكاما متهمين بجريمة الإبادة الجماعية، وجرائم الحرب في حق شعوبهم!

الزعيم الطائفي الذي آلت إليه مقاليد حكم سهل البلاد الكبيرة، قبل أن ينقلب عليه الحاكم العام، ذات فجر مكفهر.. رحب به الأهالي كثيرا، واستبشروا بعهده خيرا. وكانوا يستمعون إلى خطاباته، لساعات طوال في محبة. وقتها كان الخزين المستلق طوال الوقت على "برشه" في "الراكوبة" أمام "كرنكه" لا يفتأ يحذرهم من وعوده الزائفة. إلى أن انقلب الجند عليه وعلى بطانته لفسادهم. ونصبوا الحاكم العام بدلا عنه. الذي ما أن مكن لنفسه، حتى نسى كل الوعود والتعهدات، وفعل بشعب سهل البلاد الكبيرة ما فعل. فأخذ الناس يتذكرون من وقت لآخر تحذيرات الخزين القديمة، بعد أن تبين لهم أن لا خير في هذا أو ذاك!

وبعد أن عاد المطاريد والنازحين واللاجئين من المنافي البعيدة بعد عشرات السنوات. وكونوا في البلاد الكبيرة مستعمرة جديدة، لإحياء ذكرى الأسلاف.. عادت البلاد الكبيرة مرة أخرى سيرتها الأولى! اللامبالاة!

"البلاد الكبيرة حالة ميئوس منها!"

يقول أحدهم فيغرق الجميع في الصمت.

كانت اللامبالاة في سهل البلاد الكبيرة، تتفشى فتشمل الشجر والحجر والطير والحشرات والزواحف، وعموم الحيوانات. بل وطالت حتى رموز التاريخ الوطني الوفيات منذ عهود سحيقة! فقد تراكمت وقائع أخطائهم، وانفجرت بوجه الجميع، لتمزق أراضي السهل. دون أن تنتاب أحدهم حيرة أو ذهول أو أسى أو ندم، أو أي نوع من أنواع المشاعر الإنسانية أو الوطنية فقط: اللامبالاة والتبلد! كأن سهل البلاد الكبيرة ليس سهلهم، وكأن البلاد الكبيرة ليست بلادهم؟! كانت أحاسيسهم قد تعفنت، وأرواحهم قد نخرها السوس بعد أن قولبهم الحكام العامين والزعماء الطائفيين المتعاقبين، فلم يعودوا يشعرون بشيء!

كانت المهمة الأولى لصانع الفخار فيما بعد هي: أن يبرهن لنفسه ولهؤلاء، أنهم لا زالوا يملكون إحساسهم بما يجري حولهم. وأن بإمكانهم أن يهتموا بهذا الذي يجري، فيتمكنون من إصلاح حالهم وحال السهل!

لطالما خطر على بال صانع الفخار، منذ بدأ يعي حالة اللامبالاة والتبلد العام، في طفولته الباكرة، سؤالا ملتبسا. أيهما اللامبالي: هو أم سكان سهل البلاد الكبيرة؟ وهل اللامبالاة

وباء أم حالة عارضة أو متأصلة كالصفات الثابتة؟ أم رغبة للتعويض النفسي، عند الفشل في الإجابة على أسئلة البلاد الكبيرة الوجودية المحيرة التي يطرحها واقعها كل يوم؟

الفضاء العام الذي كان يحيط بأحد صانعي الفخار المتعاقبين في كل عصر، حتى لحظة وقوعهم في قبضة عسس الزعيم الطائفي أو الحاكم العام، أقل ما يوصف به أنه معقد ومتشابك الوقائع والأحداث. بدء به هو نفسه: جادين جانو.. بهويته المصاغة في مجتمعه المحلي، في إطار الهوية العامة للبلاد الكبيرة. والتي كانت أشبه بمجموع هويات متباينة نشطة، داخل حقل الهوية العامة، غير محددة الملامح! ثم نظام التعليم العام، والمعارف التي استقاها من الخزين ود طبلة.. وهكذا كانت تفاعلات كل هذه العناصر داخله، لا محالة تفضي للأسئلة، التي شغلت باله وبال كثيرون غيره في البلاد الكبيرة والجوار عبر العصور!

كان عندما لا يجد إجابة، يشعر بالإحباط. ويبدأ مرة أخرى جادا في البحث عن إجابات، تهدئ صبواته!

بعد أن آل أمر البلاد الكبيرة للطوائف والجماعات، سطع نجم صانع الفخار. كخطيب أريب، بين مفترقات الطرق والأسواق الصغيرة ومنعرجات الدروب. فأصبح له مريدون في كل مكان يحل به. ولم تكن حكومات الطوائف والجماعات، بقادرة على فعل شيء ضده، حتى تلك اللحظة التي قضى فيها الجند عليها، ذات فجر معتم! معلنة عن بدء عهد الحاكم العام!

وقتها كان صانع الفخار في ذروة مراهقته، ولم يعد بحاجة لارتياد خلوة الخزين ود طبلة، بعد أن نهل من معارفه ما نهل.. وهو الوقت نفسه الذي فجرت فيه الجماعات والطوائف المخلوعة من قبل الحاكم العام، حروبا أهلية طالت كل أطراف سهل البلاد الكبيرة، ووضعت صانع الفخار بمواجهة أكبر أسئلة حياته.. سؤال البقاء والاستمرارية على قيد الحياة.

فهرب إلى غابات دار الريح ووديانها. يحرض الأهالي على الثورة ضد الحاكم العام، الذي كان بدوره قد أعلن عن مكافأة كبيرة، لمن يرشد عنه. وقتها كان التعب والإرهاق قد نالا منه، بسبب هروبه المتواصل. وعدم تناول ما يكفي من طعام وشراب، فسقط مغمى عليه في دغل من أعشاب النال، على أطراف إحدى بلدات دار الريح، وعندما أفاق، وجد نفسه

مغلولا بالسلاسل وحوله الجند، وجموع الأهالي محتشدين!

II

إن كلمة "ود أمجبو"، التي اقترنت باسم الكنيسة العتيقة عند مقرن النيلين، هي في الأصل كلمة "الجب" ذات نفسها، بمعنى البئر! فود أمجبو فضلا عن كونها محل مورد ماء أهالي البلدة في العصور القديمة، فهي في العصور الحديثة مقابر أولئك الأسلاف، الذين كانوا يردون إلى بئرها للتزود بالماء! وهكذا بعد أن غادر المستعمرون الإنجليز سهل البلاد الكبيرة أصبحت ود أمجبو وصفا دقيقا لهذه البلاد الفاشلة!

على أنقاض المعابد النوبية القديمة أنشأ يهود البلدة القديمة، على أرض ود أمجبو معبدا كبيرا، حلت محله كنيسة المقرن العتيقة، بعد أن هجر اليهود البلاد، وتآمرت الطوائف و الحكام العامين حتى على مقابرهم، فمسحوها عن الوجود، وأنشأوا محلها الحوانيت والمطاعم ومحال المرطبات!

إذن كنيسة ود أمجبو التي أنشأها ود الخزين، والتي انطوت ذاكرتها على ماضيها النوبي واليهودي، نهضت على مساحة واسعة من أراضي ود أمجبو، وتوسعت أكثر، على عهد الحاكم الروماني نيرون في القرن الأول، بعد صعود المخلص يسوع بأسبوع واحد، إلى السماوات العلي.

مخطوطات صانع الفخار تقول أن ود أمجبو هو اسم الخزين نفسه! قبل أن يعرف باسم الخزين. في ذلك الزمان السحيق، والذي كان قد كتب أول مخطوطة، ظلت مرجعا مهما في العصور اللاحقة، عن تاريخ البلاد الكبيرة. ما يفسر كثير من العادات والتقاليد، التي لازمت أهل البلاد الكبيرة، حتى الآن. كتعميد المختونين والعرسان في النيل، والاحتفاء بسعف النخيل، ورسم الصليب بالكحل على جبين المواليد الجدد.

فقد كان لكنيسة ود أمجبو تأثيرا كبيرا في لاهوت البلدة القديمة، وفي تكوين شخصية سكانها. بتكريس قيم التواضع والمحبة والتسامح والعمل الجماعي. إذ كانت مدرسة قائمة بذاتها، كما أشارت مخطوطات صانع الفخار. حتى أن قديسين كثر من كل أرجاء المعمورة، كانوا يحرصون على زيارتها لتبادل الأفكار مع قسستها. حتى أن بابا الفاتيكان الذي يتم اختياره بعد موت أو عجز كل بابا، كان لا ينصب ما لم تتم مراجعة كنيسة ود أمجبو.

برع قسسة كنيسة البلدة القديمة، في إنشاء الترانيم وصناعة الأياقين وتأليف الموسيقى وصناعة الأنسجة والمشغولات اليدوية. الأمر الذي قاد مدرسة الكنيسة إلى تطوير اللغة "المروية" من لغة شفاهية إلى لغة مكتوبة، تزامن مع ذلك إتباع أسلوب في الحفر على الخشب، ليستخدمه المكفوفين في القراءة والكتابة، قبل ميلاد برايل بأكثر من خمسة عشر قرنا! وهكذا مع تحويل اللغة "المروية" إلى لغة مكتوبة ظهرت العلوم والآداب، التي تلغفها العالم بشغف، ووقف طويلا يتأمل الطابع المأساوي لحياة البلاد الكبيرة عبر التاريخ، كما عبرت عنه فنون مدرسة كنيسة مقرن النيلين! وهكذا كانت كنيسة البلدة القديمة، تشعر دائمًا بتفويض لكي تُصلِح الخلاف المعقد بين كل الكنائس والأديان.

وقد قيل عن أساقِفة البلدة القديمة، أن التحولات التي طالت البلاد الكبيرة، بدأت مع إهمال القسسة للاعتكاف والتعبد والتأمل. وانشغالهم بالاجتماعات واللقاءات بسياسيين البلدة القديمة! إذ بدأ دورها الريادي عندئذ يتقلص. كانت بداية هذا الأمر عندما ابتدأ الحاكم العام الجد التدخُّل في شئون الإيمان بالكنيسة. وقد كان رد أساقفتها في البدء:

"أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله"

منذها بدأ الحكام العامون يخوضون حربهم المقدسة، لثني الكنيسة عن عزمها. فاعتقلوا وعذبوا ونفوا الكثيرون من القساوسة. الذين لم يقابلوا ذلك بمقاومة عنيفة! إذ كانوا يحرصون على التكرار في مخاطبة رعاياهم:

" رُدّ سيفك إلى مكانه. لأن كل الذين يأخذون السيف، بالسيف يهلكون"

وهكذا مضى الحكام العامون في حربهم الشرسة، التي بلغت ذروتها في اتهام كنيسة البلدة القديمة، بإتباع تعاليم الديانات السابقة للمسيحية بالتالي الهرطقة..

وفي الحقيقة كان سياسيون البلاد الكبيرة، يريدون الجمع بين السلطتين الزمنية والروحية، بإبعاد الكنيسة وعزلها عن الدين، بإغراقها في السياسة واحتكارهم هم للدين بدلا عن القساوسة، ليتمكنوا من تكريس حكمهم في البلاد الكبيرة إلى الأبد!

فقادتهم أفكارهم الشريرة إلى أن هذا لن يتحقق إلا بأن يُبطلوا القوانين المستقلة للكنيسة، التي كان قساوستها يصرون على أن تكون منفصلة عن الدولة. وبالرغم من كل هذا، فقد ظلّ قساوسة كثيرون مخلصون وثابتون على إيمانهم بفصل الكنيسة عن السياسة.

وإذا كان ما حدث مجرّد مؤامرة من الحكام العامين، الذين تعاقبوا كعقاب للكنيسة لرفضها الخضوع السياسي، فمن الجانب الآخر أحنى قساوسة كثر رؤوسهم لعاصفة الحكام العامين، وأصبحوا علماء لهم.. يبررون لهم الجور والاستبداد ويمدونهم بالذرائع!

فخر كنيسة البلدة القديمة كان دائما هو الاضطهاد، الذي بدأ قبل قرون طويلة. عندما أستشهد القديس المُبَشِّر الخزين الجد، بعد جَرّه من قدميه عن طريق جنود الحاكم العام، الذين جابوا به كل شوارع البلدة القديمة وأزِقتها. مفتتحا عصور اضطهاد القسسة وأهالي البلاد الكبيرة المؤمنين، على يد كل الحُكّام العامين المتعاقبين. لدرجة أن قساوسة كثر، كان يتم تعذيبهم ونفيهم حتى على يد أخوتهم المسيحيين.

عندما بدأ العرب يتوافدون للمرة الأولى، وبعد أن احتلت جيوش الأتراك والمصريين سهل البلاد الكبيرة، في المرة الثانية، على عهد خلافة الأتراك، ومن ثم تلى ذلك احتلال الإنجليز البلاد الكبيرة في المرة الثالثة.. أعلنت هذه الأحداث أن ثمة تغييرات كبيرة وحاسمة، على وشك الحدوث في البلاد الكبيرة!

بهدوء، ولكن بانتظام، تغيَّر وجه البلاد الكبيرة الغالِب، وأصبحت غالبيتها إسلامية في مطلع القرن التاسع عشر. وهكذا وجد المسيحيون وأصحاب الديانات الأخرى، أنفسهم مواطنون من الدرجة الثانية! في سياق التهميش العام، الذي تم عبر سلسلة معقدة من التحالفات و وعلاقات المصاهرة و الإجراءات والقوانين، عبر تاريخ البلاد الكبيرة.

في الأيام التي تلت مقتل صانع الفخار، والاختفاء الغامض للخزين، كانت البلدة متلفعة بكل أنواع المشاعر الغريبة! فقد بات هواءها مختنقا وتربتها قاحلة، وأشجارها جافة متساقطة الأوراق.. سماءها قاتمة. وكل شيء فيها يفوح بروائح التحلل والعطن.. حتى الناس في دروبها الضيقة، كانوا بدلا عن التحايا، يتبادلون السباب والشتائم البذيئة المقذعة..

كما أن أسراب الطيور المهاجرة، التي جاءت على غير موعدها– فقد كان الوقت نهاية الصيف "القيطوني"– الذي أتسم به هذا الجزء من كون مهدد بالزوال.. غيرت رأيها و هاجرت مرة أخرى، عائدة إلى موطنها!..

كان ذلك الصيف الصاهد، الذي شهدت إحدى ظهيراته المنصرمة، مقتل صانع الفخار، عطنا.. متسخا.. مخيفا وغريبا إلى أقصى حد، دونا عن كل فصول الصيف، التي تعاقبت

على البلدة القديمة، عبر تاريخها العريق. حتى أن مقابر "ود أمجبو" المجاورة للسوق "الورا"، في الصبيحة التي تلت مقتل صانع الفخار، فوجئ بها الأهالي كلها منبوشة! وأرماث أسلافهم من الموتى، قد اختفت في غموض تام! دون أن يجدوا لذلك تفسيرا!

ومع ذلك كانت دموع نساء البلدة القديمة، التي فاضت كنهر هادر، ليست مجرد دموع فحسب.. كانت تخدد في الأرض، طرقا جديدة لشعب البلاد الكبيرة، الذي هيمن عليه الحزن العام!

III

في تلك الظهيرة التي أحرق فيها صانع الفخار في فناء الكنيسة. كانت زوجات الحاكم العام العديدات، باستثناء صغراهن، تفقن للتو من نوم عميق. كن لحظتها يشعرن، كما لو أن سعادة الدنيا كلها تجمعت في أحلام ليلة البارحة. التي هي ذكريات سرية مع عشاقهن العديدون. وهكذا مضت صغراهن، تدغدغ صدرها وفخذيها بحنو، ليندفع الدم حارا في شرايينها، فترتخي أعصابها المشدودة، مع الفرقعة المكتومة لغصن النيمة، التي ناءت بأسراب الطيور المهاجرة، التي كانت قد قررت الرحيل!

لحظتها امتد شعاع الشمس، مخترقا غشاوة السماء الغائمة، عابرا خلال نافذة غرفتها، فأحدث في نفسها، تأثيرا غامضا. أشعل فيها المخاوف والهواجس والظنون. إذ بعد ذلك خيم على فضاء البلدة دخان أسود! نبع من مكان مجهول في الفضاء الرحيب. فشدت صغرى زوجات الحاكم العام صدرها بتكاسل، تحاول أن تقاوم في تثاؤبها المتكرر، بقايا نعاسها، دون أن تكترث!.

كان كل شيء حولها لا يزال عبقا بأحلامها الليلية الجريئة: الضوء الخامل وحفيف أوراق شجيرات الجهنمية الحمراء، في باحة القصر الرئاسي.. خرير الجدول، الذي تتكئ على شفته، غرفة أحد الحراس من عشاقها السريين، وآثار البلل التي جفت على أوراكها الممتلئة!

الطريقة التي أعدم بها صانع الفخار، رسمت في أذهان الأهالي، استفهامات لا أول لها ولا آخر، كان في مقدمتها طبيعة علاقتهم بهذه البلاد.. البلاد الكبيرة. وهكذا قادت هذه الأسئلة دار الريح، لتصبح مستودعا ضخما للسلاح.

وفيما شهده ذلك العصر أيضا، الانتعاش الرهيب والرواج الكبير لهذه التجارة. كما شهد شيوع القتل والحروب والدمار والخراب، الذي طال كل شيء. بعد أن امتلأت دار الريح بالسلاح، حتى فاضت بكل أشكال وألوان المليشيات والغزاة من دول الجوار!

كان واضحا أن دار الريح تتعرض لمؤامرة محلية – إقليمية ودولية مربكة! فقد أصبح الأهالي الذين فتنهم الحاكم العام، ليقتلوا بعضهم البعض منقسمين.. يميزون أنفسهم وفقا لهوياتهم وسحناتهم وعقائدهم الضيقة! لم يعودوا يشعرون بانتمائهم جميعا لسهل البلاد الكبيرة، بذات القدر!

في مثل هذا المناخ اللعين، اكتشف صانع الفخار، أن الأشكال المتعددة للجماعات والطوائف، قد استغلت لتحقيق مصالح أثنية وطائفية، تتعلق بمجموعة الحاكم العام وأقرباءه في الجماعات والطوائف. وهكذا كانت تلك نقطة البداية لصانع الفخار، ليبحث في الإجابة عن سؤال الذات.

وهكذا اعتزل صانع الفخار الناس، واختفى في وديان دار الريح، ولم يظهر إلا بعد أن استولى جند الحاكم العام على السلطة، فمضى يحرض الأهالي إلى أن نال منه التعب!

عندما بلغ صانع الفخار سن المراهقة، حاول أن يجيب عن هذه الأسئلة، ولمعرفته بأن شعب البلاد الكبيرة لا زال يؤمن بالدجل والشعوذة، قام بكتابة رقي وتعاويذ بـــ"العمار" على لوح خشبي، ثم غسله في النيل. ليشرب منه أهل السهل.. ثم فعل الشيء نفسه في وديان دار الريح، حتى يتأكد أن ما من كائن حي في البلاد الكبيرة، إلا ويكون قد شرب من هذه الرقي والتعاويذ المذابة في الماء!

وهكذا فوجئ ذات صبيحة باكرة، ريانة بدعاش طمي النيل و"همبريب" الوديان، المشبع برائحة "السعدة والسناسنا وصندل الردوم" بأرض سهل البلاد الكبيرة من أقصاها إلى أدناها، ترتج وتتزلزل بإيقاعات هي مزيج من "الكمبلا والمردوم والتم تم والجراري والشاشاي" و.. إيقاع واحد ومتوحد يتخلله غناء عذب بكل لغات البلاد الكبيرة! كان السكان، كأنهم يفيقون للمرة الأولى منذ آلاف السنوات!

منذ أن سمع جادين جانو بتلك النبوءات البعيدة، التي هي في الحقيقة جزء من تاريخ البلاد الكبيرة، وسيرتها ومسيرتها. ظلت تداهمه ذات الخواطر، التي كانت تداهم صانع الفخار.

كما كان هو يتخيل خواطر صانع الفخار!..

فصانع الفخار منذ طفولته الباكرة، هيمنت على حياته تلك الرؤى الغامضة، عن الحياة والموت والكون وأسئلته المعقدة!. فانهمك تحت وطأتها مشكلا الطين، أشكالا لا تخلو من نبوءات محتملة. أسهمت في تشكيل حياته وحياة من حوله. بل وحياة "جادين جانو– الحفيد" بعد مئات السنوات!

من عاداته التي لم يخالفها يوما واحدا منذ طفولته الباكرة حتى اللحظة التي سبقت مقتله حرقا في ساحة كنيسة "توتي" العتيقة المطلة على مقرن النيلين.. هي وقوفه عند كل صباح.. عند شروق الشمس. متأملا سهل البلاد الكبيرة الرسوبي المنبسط، على مد الأفق المترامي، بانحداره الطفيف.

كان يرى بعين خياله كل المرتفعات التي تتخلله: الغابات، الجبال، التلال، القيزان والجروف الصخرية.. كان يرى النيل الذي يشق السهل قسمين، كفلقتي نواة واحدة. فيقول في نفسه كمهووس بالفخار:

ترى كيف تكونت هذه التربة، التي سقتها دماء الأسلاف عبر آلاف السنوات؟!..

التربة الرملية في إقليم الصحراء وشبه الصحراء، في السافل ودار الريح؟.. بهشاشتها وافتقارها للخصوبة.. ترى كيف تكونت هذه التربة الطينية في الوسط ودار صباح، الغنية بالخصوبة والجمال الأسمر.. ترى كيف تكونت هذه الترببات الحديدية الحمراء، منخفضة الخصوبة والقابلة للتدهور في الصعيد..

وهذه الترببات الرسوبية السلتية على ضفاف النيل.. وأشقاءه من أنهار دائمة وموسمية.. ووديان تتخلل سهل البلاد الكبيرة الواسع.. الممتد.. بخصوبتها العالية بسبب الطمي الذي يجددها كل عام.. وهذه التربة البركانية الخصبة في دار الريح، وما تمثله من لغز محير في عالم الطين والخصوبة؟!!.. يتنهد ود الخزين:

" كان صانع الفخار إذن مغرما بالطين وكل ما يتصل به!"

فيتناهى إلى مسامع الخزين صوت مجهول:

"لقد أحرق العسس صانع الفخار في فناء الكنيسة"

ما أن تناهى إلى مسامع الخزين، خبر مقتل صانع الفخار. حتى شعر كأن نفحة قوية من اللهب، تشوي جلده و تحرق عظامه. لحظتها فقط.. فقط لحظتها.. شعر بكم هو طاعنا في السن.. ووحيدا وبائسا إلى أقصى حد.

في الحقيقة الخزين الذي ما أن بلغ سن الأربعين، منذ عشرات السنوات. حتى توقف تيار الزمن، ولم يعد العمر يتقدم به ولا يوما واحدا. يشعر الآن بنفسه، كقلعة قديمة قاومت كل آثار السنون لتنهد وتتهدم الآن.. الآن فحسب!

عاد بذاكرته إلى الوراء.. أيام صباه.. عندما أرتحل إلى دار الريح، لينهل من معارفها، وعاد بعد سنوات طويلة، لينبهه أهالي البلدة، الذين وجدهم قد طعنوا في السن، أنه كما هو لحظة فارقهم!.. كأنه لم يلبث بعيدا عنهم سوى يوما أو بعض يوم.. كأنه خرج بالأمس فقط وعاد! ومنذها أخذ يلاحظ الخطى البطيئة لسنوات عمره، إلى أن توقفت باتئاد عندما بلغ سن الأربعين! الآن يشعر بأن كل السنوات، التي أغفلها الزمن تتجمع لحظة واحدة، فتخترق عظامه ووحدته وأساه فيتقوس ظهره ويحدودب!

لم يتزوج الخزين ودطبلة مطلقا كما كان شائعا عنه، لكن في الحقيقة لم يكن ذلك صحيحا!. ربما شاع ذلك بسبب نذره حياته لمريديه، الذين يتحلقون حوله كل يوم، لينهلوا من معارفه الواسعة. لا تتغشاه الوحدة، حتى بعد أن ينفضوا من حوله. إذ يخلفون وراءهم أطياف حكاياته، التي يظل يسامرها، إلى أن يطل يوم جديد فيجيء المريدون مرة أخرى ليلتفوا حوله.. كان مجلسه عامرا دوما بالأصدقاء والعسس وأشباههم!.

في اللحظة التي جاءه فيها خبر مقتل صانع الفخار، كان للتو قد أنهى ترتيبات زواج صانع الفخار مع أم منصورة. صرف المريدين الذين تحلقوا حوله بإشارة من يده، واختلى بنفسه لحين من الوقت. قبل أن يمضي لا يلوي على شيء!

في اللحظة ذاتها كانت منصورة تستعيد قلق و أرق ليلة البارحة! وتلك المشاعر الغامضة التي انتابتها.. الآن.. وعلى حافة الموت، تكشفت كل المشاعر الغامضة عن مكنوناتها، وفارقها ذلك القلق الذي استبد بها لوقت طويل، بعد أن تسلل إلى أعماقها، و أحكم حصاره على مشاعرها.

كان وجه منصورة يستحيل الآن إلى كيان جامد، ليس له شبيه، ليس بالإمكان عبره قراءة

حقيقة ما يجول في خواطرها الملتهبة. إذ كان وجهها لا يفصح عن شيء محدد البتة، مع أن كل من رآها لحظتها، كان يعلم أنها تخبئ خلف جموده، آلام وعذابات من المستحيل كبحها! كما لو أنها قد حلت محل قلبها، وراحت تضخ في شرايينها الأسى والعذاب، اللذان لا حدود لهما.

كانت منصورة تعلم أن من هو مثل صانع الفخار لا يخشى الموت، وكذلك كانت تعرف منذ وقت بعيد، أن هذا اليوم آت لا محالة، وأن لا مفر منه.

"لقد فعل كل ما ينبغي عليه فعله"

همست لنفسها.. وهي تعزي نفسها، في أنه لم يمض إلى حتفه، دون أن يخلف للقادمين آثاره.. فالمنحوتات التي خط عليها صانع الفخار رموزا معقدة، هي الشفرة لهوية البلاد الكبيرة، والتي تم التواطؤ عليها من قبل الحكومات المسماة وطنية، وغالبية أحزاب البلاد الكبيرة، وعدد كبير من المثقفين والسياسيين وقادة الرأي العام. إلى جانب منظمات طوعية، وأحزاب دينية إحتيالية، وطوائف اشتهرت باستغلال الدين في السياسة؟!

جادين جانو المهووس بجمع أعمال صانع الفخار، وكشف أسرارها على الملأ. بدأ رحلة بحثه عن منحوتات صانع الفخار– الجد.. المتفرقة في كل أنحاء البلاد الكبيرة، بالبحث عن ذاته والتعرف عليها، بحيث أصبحت ذاته هي نقطة البداية، لسبر أغوار سؤال الهوية المشفر في منحوتات صانع الفخار، التي في الوقت الذي خلى المتحف الوطني ودار الوثائق المركزية منها تماما، تفرقت ما بين الخزائن الخاصة للسياسيين الفاسدين، ومتاحف العالم الواسع، لكون مهدد بالزوال في أية لحظة، نتيجة الحروب والأوبئة وكوارث الطبيعة، وفساد الحكومات واستبدادها!

وأكثر ما لفت نظره.. تلك المخطوطات القديمة، التي تعود بتاريخها إلى الوقت الذي كانت فيه اللغة "المروية" هي اللغة الرسمية للبلاد الكبيرة، إذ لم تظهر الكِتابات بكلتا اللغتين المروية والعربية، قبل منتصف القرن السادس عشر وفقا لمدونات صانع الفخار.الذي أشار إلى كِتابات ترصد التاريخ الاجتماعي والصوفي والطائفي على عهد السلطنة الزرقاء، ككتاب طبقات الخزين ود عبد الله، أو مخطوطة كاتب الشونة، أو طبقات المرفعين راجل الليل أب كراعا برّه، وغيرها من الكتب القيمة و الهامة التي ترصد أوجه الحياة المختلفة.

خبأ صانع الفخار أسرارا كثيرة، في منحوتاته العديدة، عبر كل سنوات عمره التي عاشها منذ الطفولة. حتى مات مختبئا ومطاردا ومحترقا في ساحة الكنيسة الكبيرة، التي تطل على مقرن النيلين؟! هذه الأسرار، ستعبر عن نفسها عبر السنوات، التي تلت مقتله محترقا!

كان صانع الفخار يستقي بعض موضوعاته في النحت، بإلهام خفي من أنبياء غامضين! يتراءون له في الحلم.. في الليالي التي يغيب فيها القمر، وتصبح أضواء النجوم شحيحة؟!.. فكانت هذه الأعمال بالذات تجيء مشفرة برموز، هي مرجع مباشر لإماطة اللثام، عن ما يريد أن يقول بالضبط في كل أعماله.

ومن نبوءاته التي راجت في العصر "المروي"، أن مملكة ستولد في سهول البطانة، مرتحلة من موقعها الأصلي. وبالفعل بعد عشرات السنوات، وبسبب البحث المتواصل عن المزيد من الطين الخصب، نقلت "كرمة" عاصمتها من "نبتة" إلى "البجراوية" جوار "كبوشية"، بعد أن وضح أن منطقة "البركل" الصحراوية، لا تفي باحتياجات السكان والحيوان، زيادة على ضيق الشريط الزراعي على النيل.

فالبجراوية مطلة على سهل البطانة، وهو سهل واسع. وأرضه خصبة. وأمطاره نسبياً غزيرة. كما أن مكونات طين البجراوية تحتوي على خام الحديد، خصوصا في الصخور. بالإضافة إلى وجود أشجار كثيرة، يمكن استخدامها، في إيقاد "كماين" صهر الحديد، وصناعة الفخار..

"ليس في الأمر عجب!"

هكذا كان جادين جانو– الحفيد، يهمس في سره. عندما تنتابه الدهشة، إثر فك شفرة أي رمز من الرموز، التي حفلت بها مشغولات صانع الفخار. لكونه كان كفؤاً في علم الحركة، الرياضيات، علم التشفير وعلم الخرائط والرسم والجمال.

كان صانع الفخار ولدى تأمله للنيل، يفكر في حياة الناس ومعاشهم، في هذا الجزء من سهل البلاد الكبيرة. كيف بإمكانهم أن يحيوا دون النيل.. فهم ليسوا كأهل دار الريح، الذين تمتلئ وديانهم بمياه الأمطار والسيول المنحدرة عبر الصحراء من أعالي تبستي.. فهذا الجزء من البلاد الكبيرة، النيل بمثابة شريان حياته. ودونه لا حياة لهم! وهكذا أفضت به

تأملاته، لوضع خريطة متكاملة، لأماكن الاحتياطيات الجوفية، التي تذخر بها البلاد الكبيرة. كما خط مشاريع سدود على وديان دار الريح، لإحياء نهر هور القديم، الذي يربط دار الريح بدنقلا العجوز..

" لا يبدو أن هناك حدوداً لعبقرية صانع الفخار!"

أول مرة تعرف فيها "جادين جانو– الحفيد على صانع الفخار الجد" عندما حدثه معلمه – الخزين ود طبلة– الذي عندما يتذكره الآن.. في قيده بأغلال العسس، يرى نفسه عابرا الفناء الكائن في قلب البلدة القديمة، يمشي بخطى متئدة في الأزقة الضيقة، بعد أن يعبر السوق "الورا" ومقابر "ود أمجبو".. كان وقتها كأي طفل صغير متسخ ومعفر بالتراب، يعبر بلدة معزولة في الجغرافيا والتاريخ.. الله وحده يعرف كيف تكونت في هذه العزلة الغامضة! فالسياسيون ليس لديهم وقت لمعرفة ذلك! هو وحده –كما يعتقد في قرارة نفسه– يشارك الله هذا الاهتمام بالكيفية التي جاء بها هؤلاء ليصبحوا عشوائيين، لا مبالين!

عندما تفضي به أفنية البلدة الضيقة، إلى زواياها المفاجئة، و"كوشها" يفارقه الإحساس بالاتساخ! كان يشعر بنفسه نظيفا جدا مقارنة بما حوله من أوساخ! وفي نهارات الصيف قد يستظل في طريقه بظل نيمة يتيمة. قبل أن يواصل المضي قدما، إلى حيث يسكن "الخزين ود طبلة"، الذي عندما يصله –غالبا– يجده يصارع انهيار "الكرنك" الذي يعيش فيه. غير آبها لمواء القطط المرتعبة والكلاب المذعورة حوله.. والفئران التي لم تعد تبالي بأي انهيارات حولها، بعد أن سارعت للاختباء عميقا في جحورها!

كان الخزين بوجهه المعروق والعرق المتقاطر على جبينه، كسيل تتخدده سدود التغضنات، ويحاول البحث عن ركن لم تطاله ركامات الانهيار أو الحريق، ف"كرنكه" دائما في حالة انهيار أو حريق.. ومع ذلك دائما هو هادئا ووقورا كأن شيئا لم يكن!.. كل شيء فيه يتبدى نحيلا. حتى شفتيه المبتسمتين في لا مبالاة كعادتهما.. يتحرك الخزين غير متعجلا.. إذ سرعان ما سيبني ما تهدم من جديد! فقد كان تجسيدا للحكمة الأزلية، التي وردت في نبوءة جادين جانو الجد الأكبر: "أنت من طين لتبني"!..

عندما يتجمع الناس في "النفير" لمساعدته في إعادة بناء "كرنكه" من جديد.. يسرد لهم، كيف تواجد في العالم الآخر.. يروي لهم عن الأرضة والسوس، اللذان تخصصا في هدم "كرنكه" كأنه يحكي عن أمر معتاد لا غرابة فيه!

كانو يحبون طريقته في الحكي.. يأتونه من كل فج عميق.. من الدروب الوعرة و الشوارع الضيقة في البلدة القديمة، ومن الأحياء وراء السوق "الورا" وتخوم مقابر "ود أمجبو". بعضهم يجلب له طعاما وبعضهم يجلب ثيابا.. ويكتفي "الغتيتون كيتا فيه" بالسؤال:

"(لطالما حكيت لنا عن أن "السوس والأرضة" هما ما يتسببان في إنهيار "كرنكك".. فماذا عن حريق "كرنكك" هذه المرة؟)"

فيرد بهدوء:

"أنه السوس أيضا"

كان الخزين عادة يجلس ليحكي للناس وهو عاري الصدر، لكن مع ذلك لم يكن ثمة من ينتبه لعريه أو كثافة شعر صدره! وكان دائما أمامه صحن لا يخلو من شرائح "شرموط الضان أو الكجيك الجاف"، الذي يقضمه بين آن وآخر في تلذذ واستعذاب!

أحيانا يستلقي على جانبه في "البرش"، الذي يحرص أن يكون محاذيا لــ"بنبره" العتيق، الذي لا يحركه من أمام مدخل "الكرنك" تحت ضل "اللألوبة" المعمرة، التي بمثابة شاهدا على عصور متعاقبة للناس والحياة، في هذا الجزء من العالم المهموم والحزين!

أصدقاءه وجلساءه الدائمون غير الوجوه الأخرى المتغيرة: ثلاثة، أعمى يحرص على ارتداء بدلة أعضاء الحزب الحاكم، رغم أنه لا ينتمي للحزب الحاكم. و مقعد أبكم يعطي جلساءه الإحساس المزمن بالقرف، ومدى اكفهرار هذه الحياة البائسة. وجادين الصغير بعقله الوقاد ونظراته الثاقبة، التي تشي بقدرتها على إختراق كل شيء تقع عليه!.. يجلسون بالقرب منه، مثل سلسلة. غير آبهين بمضايقة السابلة لهم.. أولئك العابرون من كل فجاج الأرض، وأيضا إلى فجاج الأرض.. عندما يتوقفون عن المسير، لنيل قسط من الراحة، وشرب شيء من "المريسة أو العسلية أو الكانجي مورو!"..

كان جادين أحيانا، يدون بعض الحكايات أو الملاحظات كيفما اتفق.. في أي شيء يجده أمامه يصلح للكتابة عليه. لكن في الوقت نفسه كان لا ينشغل عن مراقبة كوة "القطية" المجاورة.. حيث تسكن منصورة.. الصبية ذات القوام الفارع النحيف الأسمر، التي كانت ترمي بأذنيها في مثل هذه اللحظات وتمددهما، لتحتويان كل حكايات الخزين ونبوءاته.

المرة الأولى التي رأى فيها جادين منصورة، كانت الشمس في كبد السماء. والبلدة غارقة في قيلولة غائظة، لا حدود لها. سموم هجير الصيف، جعل من البلدة ساعتها، كأنها قوز رملي نائي وبعيد عن كل شيء.. يغلي كأتون يحرق كل شيء، إلى درجة أن أحداً ليس بإمكانه أن يتوقع، أن يكون بوسع أي كائن حي، أن يغيّر مصيره في هذه اللحظة بالذات!

كانت منصورة دائما ما ترتدي على كنفوسها ثيابا بسيطة. تبدو غريبة للوهلة الأولى، إلى أن يعتاد عليها البصر! وكانت دائما ناعسة العينين كأنها لم تنام لقرون طويلة. وأكثر ما كان يميزها، إكليل "الريحان" الذي تضعه على رأسها، لامة به شعرها الذي تتركه حرا على سجيته دون مشاط!

يستدير جادين بوجهه الدائري الصغير، وملامحه الدقيقة، ولوهلة يحاول طرد الأفكار، التي تتحدر من رأسه، فتثقل على بصره.. يهمس إليها بكيانه كله، دون أن تنبس شفتيه ببنت شفة! فتهرع منصورة بكل تألقها.. تقطع المسافة بين قطيتها ومجلس الخزين بسرعة الجن، وتجلس إلى جوار جادين، الذي لا يشعر لحظتها بأي غرور ذكوري! إذ يكون وقتها محتلا بالألق وبالغبطة والرضا التامين!.

نساء القطاطي المجاورة.. العابسات السمينات العانسات اللعينات، يغرن من جمال منصورة! واللائي كن "كيتا" في منصورة، عندما يعاشرن أزواجهن أو عشاقهن، يتخيلن أن من يعاشرهن في هذه اللحظة، هو جادين بشحمه ولحمه!.. كن يضمرن لمنصورة كرها عميقا، إذ كن يشعرن باختلافها عنهن. لكنهن لم يكن بقادرات على تحديد هذا الاختلاف! وعندما يعييهن التفكير، كن يتوهمن عشاقا على صهوات جياد بيض، يتراكضون لإنقاذهن من أبراج خيالاتهن المرتفعة! وكن يرين ظلالا لحدائق يتوهمن أنها جنات الخلد، ويرين أنفسهن حوريات تجري في دوراتهن الشهرية رائحة المسك وليس الدم!

لو لم تكن للخزين مثل تلك الحكايات العجيبة، التي غذى بها عقول الناس، لما كانت لهن مثل هذه الخيالات الخارقة! و لما عشقن الخوض في الحكايات المزعومة عن منصورة وجادين، في الأماسي الطويلة للأيام التي تلي مؤتمرات الحاكم العام!. فماعدا حكايات الخزين، لم يكن لهؤلاء النسوة البائرات، أي متنفس لقسوة البلدة وقوانينها وتمييزها ضدهن!

سكان البلدة القديمة، كان موضوعهم الأساسي، الذي يتداولونه في ملتقيات أفراحهم وأتراحهم، هو علاقة جادين بمنصورة. وغالبا ما شرعت بهذه الأحاديث، تلك المرأة التي يتنادم زوجها الآن مع إحدى البايرات، في السوق الورا، أمام جزارة السمك..

وربما أن زوج أخرى في هذه اللحظة بالذات، بينما هو في كنتينه، خلف مقابر ود أمجبو، يهجم عليه أحد الزبائن، الذين يلفظون في أنفاسهم الأخيرة، لأنه تحرش بزوجته. وفي الحقيقة الزوجة تكون هي التي تحرشت به! فأهالي البلدة من صيادي السمك "المراكبية"، الذين بالكاد يكسبون قوت يومهم.. والعمال المتعبون، والرعاة والمزارعون الحائرون. بعد أن قضى الحاكم العام على أحلامهم في الحرث والنسل.. لم يعد أحدهم يقوى -كما في الأيام الخوالي- على العودة إلى عشه مع إحدى النسوة العابرات! فقد كانت كل الأجهزة في أجسامهم قد تعطلت، ولم تعد أعصابهم تعمل، كما ينبغي. بعد أن قتل الحاكم العام، معظم رجال البلاد الكبيرة في الحروب المفتعلة. وشرد البعض الآخر. بينما أختار العدد الأكبر من تعداد السكان المتبقين، مغادرة البلاد الكبيرة واللجوء، ولسان حالهم يقول: "أرض الله واسعة!".. هذا غير المساجين والمعتقلين دون ذنب جنوه!..

وهكذا أصبحت البلاد الكبيرة، بحاجة لمعجزة، كي لا يكون فيها نساء بايرات! ولهذا السبب بالذات، كن نسوة البلدة القديمة، يغرن من منصورة وحكايتها مع جادين!

كانت منصورة عندما تختلي بجادين، تستلقى في حضنه. تيمم وجهها شطر السماء، وتغط في نوم عميق. فلا يعود يشغلها وقتئذ شيء عن مراقبة سحب خيالها، وهي تشهق في السماوات البعيدة، تشارك الخالق مرئياته السرية! لا يوقظها سوى تنحنح جادين، الذي يطفق يحدثها بما تكره: أحلامه وأفكاره عن اللامبالاة والتبلد! فقد كان عندئذ تفكيرها ينصرف إلى خشيتها فقده. لكن يوما بعد يوم، كانت حدة كراهيتها لهذه الهموم العامة، تتضاءل شيئا فشيئا. إلى أن تلاشت واختفت تماما، فأصبحت تشاركه هذه الأحلام، التي أصبحت بمرور الوقت ليست أحلاما، بل صوتا واحدا متوحدا عاليا ومرتفعا.. يقض مضجع كل سكان البلاد الكبيرة!

كان صانع الفخار كمعلمه الخزين يحب "شرائح الشرموط المجفف" في نهارات صيف البلاد الكبيرة الغائظ.. يأكله بتمهل، كأنه يستعذب السباحة في أنهار الخمر، التي حكى له عنها الخزين!.. كان يستعذب طعمها، بعد أن يشمها على مهل. كأنه يشم "شربوتا معتقا"

ليتأكد من مدى جودته!

إذن بعد عشرات السنوات، كان الخزين ود طبلة، لا يحكي عن صانع الفخار، أو ينقل خبراته، للأجيال الملتفة والمتحلقة حوله عبر تاريخ البلاد الكبيرة، إلا بعد تناول شرموطه الجاف ومريسته المفضلة:

"أقول لكم.. والحق ما أقول..أن عالم الحياة الأخرى عالم فاتن وبديع، فكل ما هناك يختلف عن ما لدينا في هذه البلدة القاحلة.. أول مرة سافرت إلى هناك، تملكني الرعب! فبكيت مثل طفل صغير، وجسمي كله ينتفض. كنت مرتبكا. لا أدري ماذا أفعل.. فطفقت أمشي على غير هدى، إلى أن مررت بحفرة عميقة مشتعلة بنيران عظيمة. كانت صرخات وبكاء أصوات معذبة، تأتي من أعماقها السحيقة، فسألتهم:

"من أنتم؟"

فردوا جميعا بصوت واحد:

"نحن حكام البلاد الكبيرة".

وعند هذه اللحظة من الحكاية.. نسوان البلدة البائرات، اللائي تحيط قطاطيهن بمجلس الخزين، يتأوهن ويندبن وهن يرددن:

"ياللرعب!"

فينتعش الخزين ويعمق من صوته ونكاية فيهن يقول:

"إذا وقع أحد بحب إمرأة فهو هالك لا محالة، فهناك حفرة أخرى لهذا الغرض"

وبغتة تغمر عيون منصورة كآبة وحشية، فتطفق تقضم بشراهة "شرموط الكجيك" الذي علمها جادين أن تحبه.

وينظر إلى أحد الذين يرتدون بدلة حزب الحاكم العام:

"وهناك حفر خاصة بالعسس والجند والمليشيات"

"ماذا عن أهالينا؟"

"لقد بحثت عن أمي وعن أبي وجدي"

"وهل وجدتهم؟"

"كنت قد عدت من رحلتي قبل أن أجدهم، لكنني في طريق عودتي، التقيت صانع الفخار الأكبر مستلقيا تحت شجرة سدر، متوسدا ثعبانا ضخما.. كان مبتسما في دعة وحبور"..

"صانع الفخار؟!"

"لا. الثعبان.. حكى لي أنه لقي حتفه قبل ثمانية آلاف سنة.. على أيدي جند السلطان"

"الثعبان؟!"

"لا. صانع الفخار الأكبر"

عند هذه الجملة يغرق الصمت المباغت، مجلس الخزين. ولا يعود الأهالي إلى طبيعتهم، إلا بعد مرور وقت ليس بالقصير. حين يتعالى صراخ عجوز، لم يسبق لها أن عاشرت رجلا. حتى طعنت في السن، صبيا وقحا لأنه ناداها بجدتي، الأمر الذي هدد ذكريات أحلامها في الزمان البعيد.

كان الخزين عادة يختتم في نهاية المطاف حكاياته (أدركت شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح) وكان في ذلك إشارة إلى الحاكم العام لا باعتباره عاقرا فحسب، بل باعتباره مخنثا كما تقول الشائعات!

وبعد كل حكاية، كان الدمع ينهمر مدرارا من عيني منصورة الناعستين. بعد أن تغرورقا بالكحل، فتنداح من عرقها رائحة الريحان والسعدة البرية!. وبين نشيجها، تعدل منصورة من الإكليل على رأساها، وتترك يدها طيعة، لتحضنها كف جادين.

كان الخزين هو الرجل الوحيد من الأهالي، الذي استطاع اختراق قصر الحاكم العام. ومنحته زوجاته العديدات أنفسهن، عن رضا تام. وهن يندبن حظهن على هذه اللقاءات السرية المختلسة! كن في لحظة الوداع الوشيك، إثر كل لقاء تفيض الدموع من عيونهن مدرارة.

IV

الآن، وروحه تغادر جسده المصلوب المحترق في فناء الكنيسة، تطوف في أرجاء البلدة القديمة. وتستعيد ذكريات حياته فيها. يرى نفسه، يدور حول السوق الصغير، ومقابر ودمجبو عابرا إلى السوق الورا، فتعود به الذكريات إلى الخلف حيث يقف و ود الخزين أحيانا ليعابثان الإسكافي. أو يجلسان عند قهوة ود أبدوم، يتداولان مع روادها الأحاديث التي لا تثمر.. يبحث عن الأب جميل، ويشاهد عناق الكنيسة مع الجامع القريب، الذي احتل جزء من أرض ود أمجبو.. شاهد ذكريات.. لكنه لم يشاهد أحدا يمر في منتصف السوق القديم. ربما لأن الأهالي جميعا لحظتها متحلقين حول جسده المصلوب المحترق، هناك.. في فناء الكنيسة العتيقة.

حاول فتح أبواب الحوانيت القديمة، لربما هناك روح رجل قديم في انتظار أصدقاءه. أو أحد السابلة المتعبين، لطول ما قطعوا من فيافي وغفار. غلبه النوم على قارعة الطريق في هذا السوق.. فنام متكئا على جدار الحانوت. سوق قديم ورجل قديم.. وحكايا الخزين الضاربة بجذورها في ذاكرة المكان الذي هدته السنين!

كان السوق إذن خاو لا من الناس فحسب، بل حتى من الحياة نفسها. فحتى القطط تهرب من وجهه.. قطة سوداء تقفز نحو الحائط القريب. كان يشعر بالحسرة والشوق لتلك الأيام. عندما كانت فوانيس الجاز تضيء السوق القديم، إلى أن يعلن صياح الديكة ميلاد صباح جديد دون أن تنطفئ! وقتها كان يصحو باكرا.. قبل شروق الشمس، ككل أهالي البلدة القديمة، الذين لا يوجد بينهم عاطلا أو متعطلا.

تساءلت روحه:

"ماذا جرى لأهل هذه البلدة؟"

في هذه الحوانيت والزوايا و النحوت، التي تزين الأسوار العالية والجدر، التي نمت عليها الطحالب الخضراء والفطريات. كأنها تؤرخ لماضي البلدة القديمة، بسوقها الذي هو عصب حياتها وأنشطتها الدءوبة، التي لا تهدأ في حركة العمال والصُّناع كالحائكين والإسكافيين والدباغين والدهّانين و الخشابين والحدادين.. في هذه الحوانيت كان الناس، يجدون كل احتياجاتهم بأبخس الأثمان. فما الذي جرى؟

كان سوق البلدة القديمة يجتذب السياح الوافدين، والزوار القادمين من القرى القريبة المجاورة، التي كانت تفتقد لمثل هذه الأسواق لتتسوق وتقضي حاجاتها منه.. وقد كان السوق عند أهالي البلدة القديمة يسمى "البندر" لكن أهالي البلدة القديمة، كانوا يفضلون إطلاق اسم "ود أمجبو" على سوقهم، دونا عن كل الأسماء!

ولعل سوق ود أمجبو في البلدة القديمة، كان مثالا حيا لما يفضلون من خيارات حياتهم. والذي كان إلى ما قبل سنوات قليلة، قبيل مقتل صانع الفخار، سوقا يعج بالحيوية والحياة. أما اليوم.. وروحه تحلق في فضاءات البلدة القديمة، فقد أقفر من تجاره وعماله وباعته وصناعييه وعشابيه، الذين يداوون الأهالي بالأعشاب. كما خلى من تجارته الرائجة في تلك الأيام البعيدة، إذ لم يعد هناك مشترون أو باعة، فأضحى بلقعا يبابا.. يلفظ أنفاسه الأخيرة ببطء!

إن الذي عاش تلك الفترة الذهبية، يوم كان هذا السوق "في عزّه" لا يسعه إلا أن يتحسر على تلك الأيام الخوالي، وعلى ما آلت إليه هذه الحوانيت "المغلقة" الواقعة على جانبيه، وقد بدت حزينة كئيبة.. بعد أن كانت في يوم من الأيام عامرة.. لا يسعه إلا أن يتحسر على ما أصابها من خراب وهجران، بعد أن هجرها الأهالي!!

وإن الذي تسوقه قدماه اليوم ليمر في وسطه، لا يسعه إلا أن يحزن ويتألم على هذا الوضع المزري، وهذا الإهمال الفاضح لكل أجزاءه..

وعلى بعد مسافة قصيرة من هذا المقهى، الذي يعج مدخله بالدلالين، الذين يبيعون ويشترون ويقايضون كل شيء وأي شيء. كان يقع سوق الخضار، كخط فاصل بين السوق الصغير والسوق الورا أو سوق ود أمجبو، الذي يشمل سوق العناقريب، الذي أكثر ما تميز به صناعة البروش، والنطوع والسحارات التي تحتاجها النساء لحفظ أغراضهن. فسوق العناقريب ربما لهذا السبب بالذات، كان لا يفرغ من زبائنه.. كخلية النحل. وكان يطيب للشيوخ وكبار السن والنساء بالذات، الجلوس في هذا الجزء من سوق ودأمجبو. لأسباب خفية غامضة لا يدرون حتى هم أنفسهم كنهها! وأكثر ما يميز سوق ود أمجبو، أنه ملتصق بالكنيسة العتيقة، الملتصقة بالجامع الكبير. الذي لا يبعد كثيرا عن مقر الحاكم العام..

ستمر عشرات بل مئات السنوات، لكن سيظل سوق ود أمجبو يحمل آثار عزّه القديم

ومجده البائد، الذي تكشف أحفورات صانع الفخار عن معالمه المقفرة في ذلك العصر الكارثي..

وفقا لمخطوطات صانع الفخار، أن من قام بتشييد هذا السوق، هو الخزين الأكبر. أثناء حكم نيرون لروما في القرن الأول الميلادي. وقد كان في البدء مفتوحا.. والأضلاع التي تشكله الآن مستحدثة. فأحد أضلاعه تم إنشاءه في أواخر العهد النوبي، قبيل سيطرة العرب بقليل. أما الضلع الآخر فقد شيد على عهد حكام الفونج وسلاطين دار الريح الأقوياء، وبهذا المدخل توجد عدة مداخل: مدخل للسوق الصغير.. ومدخل لسوق مقابر ود أمجبو.. ومدخل لسوق السمك وجزارات الكمونية والدواجن. ومدخل للكنيسة القديمة والجامع الملاصق لها .

كان سوق ود أمجبو إذن يبدأ طريقه من حيث الجامع والكنيسة، وجزارة السمك والكمونية. ثم يتجه شرقا حيث ينهض في بداية صفوف دكاكينه دكان الخردوات، الذي يطيب لدراويش البلدة القديمة، الجلوس تحت كشاشته.. كانوا بثيابهم الملونة يجلسون في هدوء وهم يتبادلون أسرارهم!

وبدء من الصف الذي يلي دكان الخردوات، يمكن للمار أن يمر بشخصيات هذه السوق الثابتة والمميزة واحدا واحدا كلما أوغل في المسير. فالمرحوم رزق كان يحترف من المهن والحرف كل شيء، بدء بصناعة الطواقي والمناديل والقفاف، مرورا بقلع الأسنان المسوسة ووضع حدوات الجياد وقص أظلاف المواشي، بالإضافة إلى كونه حلاقا وطبيبا وحجاما. والذي كان يسبغ على السوق جوا من المرح والسرور بنكاته و"مقالبه" البريئة، التي لم يكن ينجو منها أحد!!.. وطمبل صاحب الشخصية القوية، الذي قلما كنت تراه مبتسما.. والذي كانت مطرقته تترك وقعا داويا يرن في أرجاء السوق كله.. وغيرهم كثيرون.. خطروا على روح جادين فردا فردا في هذه اللحظة الفاصلة التي تفارق فيها روحه جسده المحترق.

كان الناس يلتفون حول أصحاب هذه الحوانيت. الذين كانوا في معظمهم متحدثين بارعين، يستأنس الأهالي بقصصهم الممتعة، وأحاديثهم السلسة ونكاتهم المرحة. التي تغذيها حكايات الخزين. التي تفيض بالحكمة والطرافة.

كل حركات المقاومة والمعارضة والهبات الثورية، كانت تخرج من قلب هذا السوق. ولهذا

السبب بالذات أصبح الحكام المتعاقبون يستهدفونه. إلى أن وصلوا به إلى هذا الحال البائس!

كان شاغلي السوق دائما ينقسمون إلى معسكرين: قسم مع الحاكم العام وآخر ضده. وكثيرا ما كانت تدور بينهم معارك حامية الوطيس، قد يحتدم فيها النقاش لدرجة الشتائم والسباب البذيء المقذع والعراك بالأيدي، لفرض آرائهم. إلى أن يتمكن العقلاء من فض هذه الإشتباكات.. ليعودوا في اليوم التالي وكأن شيئا لم يحدث البارحة!!... هكذا كان أهالي البلدة القديمة، في تلك الأيام الخوالي!.. وهكذا ودعت روح صانع الفخار سوق ود أمجبو وهي تتحسر على أمجاده الغابرة!

وروح جادين تحلق في فضاء سوق ود أمجبو والبلدة القديمة، وجسده يحترق هناك في فناء تلك الكنيسة العتيقة، كانت كل أسرار الخزين تنفتح كالإلهام على فضاء ذاكرته.. فمن الأسرار الخفية للخزين، والتي أبدا لم يطلع عليها أحد سواه حتى الأطراف المباشرين لهذه الأسرار، أنه في لحظة ما بعيدة، توسطت سنوات غابرة في انصرام الزمان، وبينما كان الخزين يسكن وحده في هذه البلدة التي لم تكن وقتها مأهولة، بسبب ما حل بها وبسكانها القدماء من أسلافه من دمار على مر العصور. فقد بد السكان يتوافدون إليها، يحيون ذكرى أسلافهم الغابرين! بعد أن شيد فيها الخزين أول كرنك عرفته في تاريخها القريب، بعدها غادر البلدة إلى دار الريح لحين من الوقت، وعندما عاد كانت برفقته امرأة فارعة، أنجب منها جدة منصورة. ماتت تلك المرأة بعد فترة قصيرة، بعد أن أنجبت له فتاة جميلة، ستكون في مقبل الأيام هي الجدة المباشرة لمنصورة. ورثت منصورة لون جدتها وقوامها الجميل،وشعرها الأسود الطويل. فضلاً عن عينيّ الخزين اللتين كعيني صقر عجوز.

لم يطلع أحد أبدا على هذا السر. بل حتى أن منصورة ووالدتها لم تكونا تعرفان، أن الخزين في الحقيقة هو جدهما! لذلك كان الخزين سعيدا جدا، وهو يراقب تلك المشاعر البطيئة المتنامية، التي تدنو حثيثا. لتصل قلب منصورة بجادين!

كان جادين يرى روحه تخرج من أعماقه.. تحلق فوق رؤوس العسس، وجموع الأهالي المتحلقين يشهدون لحظة إعدامه.. ثمة تصفيق متقطع، وزغاريد شاحبة، تمتزج في لهب النيران المشتعلة حوله.. ثمة رصاصات تتلاشى في الألسنة المتطايرة. ومن بين مشاهد كل هذه المهزلة، رأى طيف الخزين يبصق في جموع الناس بازدراء ومقت شديدين! في اللحظة نفسها كان الحاكم العام يلقي على الناس بيانه، حول الخونة والخوارج والعملاء

والمرتزقة شذاذ الأفاق.. المخربين الذين سيجعل منهم أمثولة لآخر الزمان! كان الحاكم العام يلقي بخطاباته في هستيريا وهو يجوب شوارع البلدة ودروبها. وسط الهتافات العالية لحزبه الوطني.. في هذه اللحظة ذاتها.. الفارقة بين عالمين يعلنان انتقال روح جادين إلى مثواها، وميلاد روحه مرة أخرى في صانع فخار جديد.. في هذه اللحظة المحاصرة برائحة الحرائق والرماد، رأى الحاكم العام منصورة بين جموع الأهالي: عينان لامعتان، شفاه رقيقة، أنف دقيق، وشعر ممشط في جدائل كبيرة يتخللها الودع الملون!

بدت له منصورة في فستانها البسيط، ووجهها الذي لوحته الشمس، أجمل أنثى في الكون تقع عليها عيناه!. فتوقف عن إلقاء خطبته لاهث الأنفاس، وأشار إلى حرسه الخاص تجاهها.

في تلك الظهيرة، كانت منصورة التي تستعد للاقتران بجادين، قد ارتدت تلك الثياب التي كانت أجمل ثيابها، بعد أن مشطت لها أمها شعرها على ذلك النحو الذي يقلق ذكورة الرجال.

ثم جلست على بنبرها الحميم لتستمع لنبوءات أمها، التي تفرغت لحظتها لتخط الودع وتقرأ مستقبل ابنتها الوحيدة.. كانت ترى في الودع فراشة تطير في هجير الظهيرة، وتسقط محترقة.. ثم تنبعث من جديد وتحلق بعيدا بعيدا في الهواء!. فيما عدا الخزين ومنصورة، لم يكن أحد يعرف أن أمام صانع الفخار أياما معدودات، ليفارق بعدها هذا العالم الكارثي الشائه!

في اللحظة نفسها بينما كانت روح جادين تحلق عاليا إلى طمأنينتها، كانت تلك الفراشة تلحق بها. فترتعش روحه دون وجل وتهدأ.. تعانق الفراشة.. تتوحد معها، يستحيلان معا إلى بريق في اللانهاية.

V

المرة الأولى التي التقى فيها الخزين بتلك المرأة البدوية الجدة الكبرى لمنصورة، أدرك أن القدر سطر له مصيرا غامضا لا مفر منه!.. أخذ يحكي لها عن البلدة التي يحلم بتشييدها بين مقرن النيلين على أنقاض البلدات التي طالها الخراب والدمار عبر العصور السحيقة لتاريخ البلاد الكبيرة، فأومأت برأسها موافقة، فأبتسم وهو ينتحي بها في جوف دغل من أشجار النال.. استسلما لرعبهما الذي يحفز عريه ملمس النال و رائحة قوية قوامها العرق

الزنخ تقتحم رائحة النال فتمتزج بها! وتجعل لخياشيمهما ملمس أعصابهما المتحفزة. عندما أفاقا من غيبوبتهما لم يكونان يعلمان كم من الوقت قد مضى عليهما. في تلك اللحظة بالذات كانت جدة منصورة تنمو في أعماق تلك المرأة البدوية. تذكر الخزين ود طبلة كل ذلك عندما تناهى إلى مسامعه خبر مقتل جادين محترقا في فناء الكنيسة العتيقة! و..

وبعد أن تهدأ المواجد والتوجدات والمحن والإحن والعداوات والغبائن.. بعد عشرات السنوات ستغني الحكامات بوحي منصورة أخرى أغاني مشحونة بكل بذاءات العالم ضد ذلك الحاكم العام وحزبه الوطني وأحزاب البلاد الكبيرة المخنثة!

وبالتالي يسدل الظلام أستاره، وأول من ينسحب سيكون هو جادين الحفيد ومنصورة الحفيدة ذات نفسيهما! سيسيران متعانقين جادين طاعن في السن يتهادى نحيلا متعب النظرات، ومنصورة لا تزال كفتاة رشيقة القوام لم تهدها السنون، لكن فارقتها رائحة السعدة والريحان فلم تعد ترتدي إكليلها البري!

وتشيعهما نظرات العجائز، اللائي لم يعدن بائرات بل جدات لأحفاد كثر يعمرون البلاد الكبيرة.. لكنهن لا زلن يرين إكليل منصورة.. كأنه الأمس القريب! وعندما يخطر على بالهن موت جانو الكبير محترقا يشهقن كأن شهيقهن زفرات الموت! ثم يقلن خلال زفراتهن الحارة:

"كانت منصورة قديسة.. كما كان جانو.. واحسرتي!"

ذات لحظة غارقة في تهاويم الزمن سرقت منصورة جادين!.سرقت قلمه العتيق الذي أهداه إليه الخزين، و الذي كان قد ورثه عن أسلافه، الذين اشتروه من أحد حراس منزل جادين الأكبر قبل آلاف السنوات! كان قلما من شجر قنا وديان دار الريح، الذي تستوطن تحته وفي لبابه حبيبات الذهب.. كل ما يميزه أنه عتيق وعزيز على قلب جادين، فهو القلم نفسه الذي خط به كل جادين من أسلافه، أحلامهم وتهاويمهم عن البلاد الكبيرة وفيها!

فعلت منصورة ما فعلت، لأنها كانت ترغب في الاحتفاظ بروح جادين مقيمة معها طوال الوقت.. فمنصورة كانت كتومة تظن أنها تعلم كل شيء.. وفي الحقيقة لم تكن تعلم أن البشر جميعا وجادين نفسه إنما هم أقبية معتمة.. العبور من ثقوبها بقدر ما هو محفوف بالمخاطر بقدر ما هو مليء بالأسرار والمخاوف والهواجس والظنون!

VI

كانت أم منصورة الأربعينية الناحلة. نادرا ما تضحك. ولم تكن تبكي أبدا. يبدو أن كل ما هو ضروري للبعث على الضحك والدموع قد انتهى بالنسبة لها. وعندما كانت تضحك. تأتي البسمة غامضة مبهمة، وكأن قواها لم تعد كافية لذلك.

كانت ومنصورة تعيشان بمفردهن. دون رجال في حياتهن، في قطية صغيرة، مسيجة بالطرور على مبعدة من "كرنك" الخزين في طرف فناء البلدة القديمة. ماتت أمها العجوز منذ زمن بعيد، دون أن تخبرها بأصلها وفصلها، بعد أن زوجتها لأول طارق على بابها، الذي لحق هو الآخر بأمها بعد أيام قلائل من زواجه منها، تاركا منصورة تنمو في أحشائها.. وهكذا وجدت منصورة وأمها أنفسهن، تعشن بمفردهن كأنهن امتدادا لبعضيهما، لا تأبهان بحسب أو نسب، فقد عودتهما الحياة الحرمان من كل عزيز لديهما!

لكن مع ذلك كانت أم منصورة أشد ما تخشاه، أن تفارق الحياة دون أن تترك لابنتها سندا، لذا وفي تلك الصبيحة البعيدة، عندما همس الخزين في أذنها، بأن جادين أفصح عن رغبته في الاقتران بابنتها، لم تتمكن من إخفاء فرحتها، فملأت فضاءات البلدة القديمة بالزغاريد!

كان جادين قد تقدم لخطبتها وهو يعرف خاتمته جيدا، ورغم أنه لم يخبرهما إلا أنهما كانا يعرفان.. لم يكن جزعا ولا منصورة كذلك، لكن كان الخزين بين آن وآخر تتغشاه غيمات من أسى شفيف، تمطر على الراكوبة أمام كرنكه الذي يبتل ترابه بالدموع!

فيشعر بأنه ليس كما ظل يظن في نفسه: يمتلك زمام الأمور.. كان مجرد ترقب انتقال صانع الفخار إلى عالم آخر غير هذا العالم، يفجر في نفسه كل مكامن ضعفه. لذا كان عندما يخرج إلى مريديه أثناء هذا الترقب المميت، كان يتعمد أن يحكي لهم حكايا طويلة لا أول لها ولا آخر، عن الموت والحياة والعالم الآخر، الخالي من الهواجس والظنون!

بل أخذ يتعمد لدى الجلوس إلى حواريه، أن يكون عراقيه وسرواله الطويل نظيفا على غير عادته، فكانوا يشعرون بأن ثمة شيء فيه متغير على غير العادة، لكن لم يجرؤ أحدهم على النبس ببنت شفة، إلى أن دهموه بالخبر الذي ظل يترقبه لوقت طويل:

"أحرق العسس صانع الفخار في فناء الكنيسة".

حاول إضفاء شيء من السكينة على روحه. حاول وقف التآكل الذي كان خبر الموت يشعله ليستشرى في جسمه المهدود، كالطوابي العتيقة على ضفتي النهر! لحظتها بدا لهم وجهه خاليا من تلك التعبير الذي ألفوه فيه. كانت عيناه مثبتتين كجمرتين منطفئتين في رمادهما، بدا لهم كمن يحمل أثقالا يئن تحت وطأتها. وكانت كل حكاياته عن الموت لحظتها تطوف فوق رؤوسهم، التي بلبلتها الصدمة. لكن دون ذلك الصوت العميق الريان بالحنين والذكريات.

"كان صانع الفخار الأكبر يسبق عصره بمئات السنوات، وقد ورث عنه جادين هذه الموهبة!"..

فهو من اخترع لغة التشفير ورموز تقنيات فك الشفرة، ورسم تصاميم أولية للأجهزة الداخلية للجسم البشري، أظهرت الخواص التي يتحدث عنها علماء هذا الزمان؟!.

حكاية صانع الفخار إذن، سيطرت على فضاءات وعوالم "جادين جانو"، وشكلت حياته على النحو الذي قاد لأن يموت محترقا، في قطية نائية عند أطراف إحدى قرى دار الريح كحفيده جادين!

ولد صانع الفخار الحفيد في السنة ذاتها التي فاض فيها نيل دار صباح، وهطلت الأمطار الغزيرة. فتقطعت بالناس السبل، وتهدمت بيوتهم. وانتشرت كل أنواع الأوبئة والأمراض المجهولة، التي لم تكن تلبث أن تصيب أحدهم حتى يفارق الحياة!

مثل كل أقرانه من أبناء البلاد الكبيرة، مضى في طفولته إلى خلوة الخزين، ينهل على يديه علوم الأولين والآخرين.. وهكذا تحددت هوية صانع الفخار في مجتمعه المحلي، حيث تعلم لغته المحلية. إلى جانب اللغة العامة السائدة في البلاد الكبيرة! تعليمه في الخلوة على يد الخزين، فتح عقله على عوالم واسعة خارج حدود هذا المجتمع المحلي المحدود الذي نشأ فيه.

كان عقله وقادا، فيوما بعد يوم مع تنامي معارفه، يشتعل داخله صراع خفي، لا يمكن تفاديه بين عالمه المحلي والمعارف التي تمنحه لها علاقته بالخزين، وما فتحته من آفاق لا حدود. لها فكان يسرح بخياله بعيدا بعيدا عن حدود دار الريح ودار صباح والصعيد والسافل.

الفترة التي تلت مقتل صانع الفخار الحفيد، شهدت الكثير من المآسي، مثل تنامي الاحتراب القبلي وكوارث الطبيعة، والفقر المدقع الذي شمل كل أنحاء البلاد الكبيرة، بعد أن هرب الحاكم العام وبطانته كل ثروات البلاد الكبيرة، وعاثوا خرابا ودمارا!

كان ظل السلطة قد اختفى عن بنادر وحواضر وأطراف البلاد الكبيرة، و تصاعدت أعمال حرق القرى والسلب والنهب، وأصبح الأهالي البسطاء يقتلون بعضهم بعضا دون أسباب وجيهة. وكان الجميع يعلمون أن سبب هذه الفوضى العارمة، التي تضرب بأطنابها في كل شيء، هو الحاكم العام نفسه وبطانته وعسسه وجنده، فقد كانوا ضالعين من قمة رؤوسهم إلى أخامص أقدامهم، في كل ما حل ويحل بالبلاد الكبيرة، بعد أن أشعلوا فيها الفتن، وزرعوها بالعداوات والغباين والإحن!

وهكذا تأجج الصراع بموالاة الحاكم العام، لأطراف ضد أخرى. حتى بلغ إنفراط عقد السلام مبلغا لم تشهده البلاد الكبيرة، طوال عصورها وتاريخها الغابر. وهكذا شهدت البلاد الكبيرة الإيذان بميلاد عهد جديد من الدم والمآسي والدموع، تمخض عن الانفصال التام للصعيد، الذي آثر الابتعاد عن جغرافيا البلاد الكبيرة الموحدة، بعد أن أعياه إيجاد مسوغات للبقاء مع هؤلاء القوم، المغضوب عليهم والضالين!

وهكذا بدأت تنتشر الحركات المسلحة الهادفة للقضاء على الاستعمار المحلي، الذي عنت به القضاء على سلطة الطوائف والحاكم العام وحزبه الوطني.

إثر ذلك تحركت قوات الحاكم العام بعدتها وعتادها، بعد أن سلحت أطرافا ضد أخرى، وأطلقت العنان لمليشياتها بالعيث فسادا في دار الريح ونهبها، وقتل وترويع الآمنين من أهلها الأبرياء، الذين دفعت بهم للسير أياما وليال طويلة، عبر الحدود في رحلة تيه هي الأبشع عبر تاريخ البلاد الكبيرة!

في تاريخ البلاد الكبيرة القديم والحديث هناك الكثير من حالات الجنجويد، استخدمتهم السلطات الحاكمة في جيوشها النظامية، وكقوات صديقة. للحرب عنها بالوكالة، مجندة إياهم من شتى البقاع. فالجنجويد نجدهم في جيش إسماعيل باشا الغازي عام ١٨٢١، وفي صفوف الجيش الإنجليزي المصري في حربه ضد القوات المهدوية، وليس أدل على ذلك من صور مقتل الخليفة ود تورشين في أم دبيكرات، وهي مصحوبة بصور لجنود "سود البشرة".

ونجد الجنجويد أيضا ضمن القوات الإنجليزية الغازية لدار الريح عام ١٩١٦ وفي صور مقتل سلطانها بعد عام. وذات القوات كانت يوم مقتل السحيني عام ١٩٢١ وحديثا نجد الجنجويد ضمن مليشيات الحاكم العام، التي جندتها حكومات الجماعات والطوائف من قبل، للحرب عنها بالوكالة في الصعيد ودار الريح.

وجنجويد دار الريح الآن بهذا المعنى، هم امتداد لذلك الإرث غير الناصع، للنظم التي تعاقبت على حكم البلاد الكبيرة، حينما تلجأ السلطة في لحظات ضعفها لخلق كيانات موازية، لجيشها النظامي. للحرب عنها بالوكالة. إذن استخدم الحاكم العام في حربه المقدسة الجنجويد، ضد أهالي دار الريح البسطاء!

حتى تلك اللحظة الغادرة إثر غارة مشتركة للجنجويد وجيش الحاكم العام. واعتقال جادين جانو، ذات ليلة غاب فيها القمر وأشتد عواء الريح ذارا رمال الوديان في عيون البلاد الكبيرة، وتكبيله بالأغلال تمهيدا لترحيله إلى البلدة القديمة لحرقه في فناء الكنيسة العتيقة!

وهكذا بقتل جادين جانو حرقا، اختبأت الأسرار داخل شفرات رموزها، كخلفية مأساوية لأسئلة الذات والهوية في البلاد الكبيرة!..

لكن مع ذلك.. هنا وهناك كان شبح صانع الفخار، يظهر للأطفال الرضع وهم يمصون حلمات أثداء أمهاتهم، فيبتسمون في دعة وحبور، والحليب يتسايل من بين شفاههم الرقيقة.

ظل جادين جانو طيلة حياة معلمه الخزين ود طبلة- ينصت باهتمام لكل حكاياته عن "صانع الفخار الأكبر" الذي ولد في اللحظة ذاتها، التي بدأت فيها الممالك المسيحية، تتكون على أنقاض العالم القديم للبلاد الكبيرة، بوصول أول بعثة أُرسلت من القسطنطينية إلي بلاد النوبة، برئاسة قس يُدعي "جوليان" عام ٥٤٣م، بمساندة الإمبراطورة "ثيودورا"، فمكث " جوليان "، ونجح في نشر المسيحية بين النوبيين، والتي كانت أساسا قد أوجدت لنفسها قاعدة في البلدة القديمة قبل عدة قرون. ثم خلف "جوليان" "لونجينس" في عام ٥٦٩م، والذي قضى فترة سبعة سنوات، وهو يعمل بين النوباطيين، ثم سافر إلي الصعيد عام ٥٨٠م.

وقتها كانت مملكتي "النوباطيين" و"علوة" تؤمنان بمذهب اليعاقبة، بينما كان أهل "المغرة" يدينون بالمذهب الملكانيّ. وعندما اتحدت مملكتا النوباطيين والمغرة فيما بين عامي

٦٥٠- ٧١٠م وصارتا مملكة واحدة، مكّن إتحادهما من قيام مقاومة قوية ضد غارات العرب من ناحية، وإنهاء الصراع السياسي الديني والطائفي من ناحية أُخري، مما ساعد علي التطور الثقافي.

إذن كان ميلاد من سيعرف بـــ "صانع الفخار" في كل مرة يولد فيها، تكون هذه المرة بمثابة لحظة فارقة من منعطفات تاريخ سهل البلاد الكبيرة، بما تحمله روحه من روح ذلك العصر، بلحظاته المتحفزة بالعبقرية والجنون..

لحظات تمثل عالما بكامله، بقدر ما أنطوى على الأسرار الباطنية والسحر والدجل والشعوذة، وجرائم وإحتيالات السياسيين الأفاقين، وأرباب السوابق، حفل بفنون المعمار وهندسة الزراعة، ونمو الثروة الحيوانية والغابية.. و.. ويقال أن صانع الفخار الأكبر هو من أعطى طريق الملح ودرب الأربعين اسميهما؟!

فدرب الأربعين الذي يبدأ من الفاشر، على تخوم الصحراء الكبرى في دار الريح، وينتهي عند إمبابة في صحراء الجيزة، في الجوار أسفل النهر، توضح خرائط صانع الفخار، العديد من المواقع على امتداده، خصوصا أن للطريق نفسه امتداد آخرا، يبدأ من الفاشر، ويتوغل غربا ليصل دار الريح، بممالك الجوار القديمة، حيث منبع الريح عند تخوم الأطلسي.

إذن كان الطريق "درب الأربعين" يتكئ على صحرائه، بين عالمين يقفان عند شفاه الشمس، وهي تبتسم من وراء البحر الملون، وهي تنهي ابتسامتها عند الأطلسي وتغيب.

في تسفاره عبر هذا الطريق من الفاشر إلى أمبابة، حسب الأيام والليالي فوجدها أربعين يوما وليلة، فأطلق عليه اسم "درب الأربعين"، ومنذها سار بصيت الطريق الركبان والحداة، حتى تناهى عبر التاريخ إلى جادين جانو، الآن.. وهو يكابد ما يكابد، من أحلام.

كان تاريخ "درب الأربعين" إذن – على حسب خرائط ومخطوطات صانع الفخار، التي حصل جادين جانو على بعضها –بطرق غاية في السرية والتكتم– منذ منتصف القرن الأول قبل الميلاد. فرضته ضرورات فك العزلة، والتواصل بين شعوب سهل البلاد الكبيرة والجوار.

أشار صانع الفخار في مخطوطاته إلى طرق أخرى، ظلت تربط شعوب سهل البلاد

الكبيرة الواسع، بالعالم. وهي الطريق الذي يربط بين دار الريح والممالك المنتشرة، في حوض تشاد ويمر بكبكابية، ومنها الى كردفان وسنار وشندي والبحر الملون.

بعد مئات السنوات سيصبح هذا الطريق، هو الشريان الحيوي الذي يربط دار الريح كلها، بمنبع الريح على تخوم الأطلسي، كما يربطها بالأراضي المقدسة خلف البحر الملون في دار صباح.

فعبر هذا الطريق يمضي الحجيج من "كانم وبرنو" من ممالك دار الريح العريقة، في طريقهم إلى الحجاز. حجيج كثيرون تتقطع ببعضهم السبل بين الأهل والأوطان، وبعضهم يطيب له المقام إختيارا، وآخرون يتم ترغيبهم من سلاطين دار الريح الأقوياء، لتعليم الناس، فيقيمون ويصبحون فيما بعد أحد المكونات الأساسية لشعوب سهل البلاد الكبيرة الواسع.

ثمة طريق آخر يربط دار الريح بطرابلس وتونس، يوليه صانع الفخار أهمية خاصة، لا تقل عن أهمية درب الأربعين. تعود أهميته للاهتمام المتزايد لدى سلاطين دار الريح الأقوياء، بالحصول على الأسلحة من شمال أفريقيا، لتأمين مملكتهم، التي برزت على نحو مباغت من أعماق "جبل مرة"، لتمثل منارة تلقي بضوئها على دار صباح ودار الريح الكبيرة حتى تخوم الأطلسي.

وهو أيضا لا يقل أهمية في مخطوطات صانع الفخار، عن الطريق الذي يربط فاشر السلطان بأسيوط في منحدر النهر "درب الأربعين".

كانت كل هذه الطرق، تحمل في داخلها عوالما صغيرة متحركة، تتمثل في مجتمع القوافل، المنظم تنظيما دقيقا، لا يخلو في إدارته من تراتبية، تعني بكل شيء، حتى جوانب الأمن تجاه هجمات قطاع الطرق، ولصوص الصحراء والجنجويد.

حركة مجتمعات القوافل وأنشطتها لا تهدأ، منذ نقطة البداية حتى نقطة النهاية.

بعد مئات السنوات في محطات هذا الدرب، عثر الكشاف "جاك رينولد" على مخطوطات مهمة لصانع الفخار. أدى فك شفرات رموزها، لاكتشاف أن "وادي هور" في دار الريح هو نهر قديم بطول ١٠٠٠ كلم ينبع من هضبة جبل مرة، ويلاقي النيل بالقرب من "دنقلا العجوز". وأنه كان يستخدم أيضا (نهر هور) لربط دار الريح بدنقلا العجوز.

اهتمام سلاطين دار الريح الأقوياء المتعاظم بكل هذه الطرق، وخاصة درب الأربعين وطريق الملح، ترتب عليه التجهيزات الكبيرة التي تجري على طول هذه الطرق، من حفر الآبار وصيانتها، وإقامة الحبوس لتأديب قطاع الطرق، وإقامة الربط لعابري السبيل والحجاج فيما بعد.

وربما السبب الأساسي لهذا الإهتمام، هو أن السلاطين وجيوشهم، كانوا هم الممولين الأساسيين للقوافل، وكما أن الطريق "درب الأربعين" أرتبط في وجداناتهم بأحداث دينية هامة عبر السنوات، أخرها تلك الكساوي التي كان يبعثها أولئك السلاطين إلى خدام الحرمين الشريفين وأهل الحجاز الفقراء والمعدمين!.

وباستثناء المعلومات التي أوردها صانع الفخار، لم يهتم أحد عبر العصور بإعطاء أي نوع من المعلومات، التي تميط اللثام عن هذه الطرق، سوى ما تم تناقله شفاهيا وغذاه الخيال الشعبي.

VII

خدم صانع الفخار كمهندس للقصر الملكي في علوة، وكمهندس زراعي في المغرة، وكمهندس طرق في سوبا، وتنقل في أرجاء البلاد الكبيرة، متتبعا صوى الساري وعلامات الطريق، التي تفضي بطريق الملح إلى تخوم ممالك الساحل. أو تقود درب الأربعين عبر منعرجات اللوى إلى منحدر النهر.

وبحسب "الخزين طبلة" أن صانع الفخار ولد في "جبال كتري" في قلب البلاد الكبيرة، وتعلم على يد "الفقرا الرحل" وعمل في طفولته مزارعا بالأجرة في "حلالات وقرى دار الريح"، وعندما أشتد عوده أرتحل إلى دار صباح. فكان له ما كان في قصور الممالك النوبية.

كتاباته ومخطوطاته كتبت بلغة الفور والنوبية القديمة، الممزوجتين في لغات الصعيد ودار صباح، ما جعل هذا المزيج اللغوي المحير من الرموز، عصيا على البوح بكل مكنونات، ما يريد صانع الفخار أن يقول؟!

بانتقاله من دار الريح، التي تعتمد في حياتها، على مياه جوف الأرض و المطر، إلى دار صباح التي يشكل النيل شريانها.. وأمام رهبة هذا النيل، ابتدع صانع الفخار، طرق الري

الفيضي والحوضي.

"كان صانع الفخار يمتاز بخيال واسع وأصابع ماهرة".

عندما شعر من حوله في القصور، بتنامي نفوذه، أخذوا يدبرون المكائد للقضاء عليه!

فوقتها كانت بطانة الحاكم العام قد فرغت لتوها من التخطيط لفرض سلطتها وتكريسها لأطول وقت ممكن. باستخدام الأفكار والأهداف السياسية النابعة من عقائد الناس، وتوظيفها لخدمة الحاكم العام. فقد كانت هذه البطانة تعتقد أن عقائد الأهالي ليست مجرد عقائد فحسب، إذ هي أيضا نظام سياسي واجتماعي وقانوني واقتصادي، يصلح لصياغة البلاد الكبيرة كدولة إلهية! تستمد حياتها وسلطانها على الناس مباشرة من الإله الذي يحكم العالم!

وكان أن حدث أن قام بعض العسس المتطرفين، بمحاولة قتل أحد زعماء الجوار، وحرق مركزا تجاريا ضخما عند تخوم الأطلسي الرهيب، منذها وقد توجهت الأنظار والاهتمامات إلى ميليشيات الحاكم العام وحزبه الوطني، لدراسة أفكاره وتحديد مدى خطورتها، على أمن واستقرار البلاد الكبيرة والجنس البشري بعامة.

وهكذا أخذ العالم يعقد المؤتمرات تلو المؤتمرات، للوصول إلى نتائج بهذا الشأن.

كان صانع الفخار الحفيد يرى أنه لا يوجد فرق بين أفكار هذا الحزب وعقائد الأهالي، فعقائدهم هي نفسها ما عبرت عنه بطانة الحاكم العام في حزبها، وهكذا لم تعد المشكلة في الأفكار التي يحملها حزب الحاكم العام بحد ذاتها بل في مصدرها وطبيعتها، التي تهدد حياة الناس! إذ لم يكن صانع الفخار يرى فرقا بين هذه العقائد وتجلياتها ومظاهرها وممارساتها العملية في خطابات الحاكم العام. لذا لم يكن يرى أن من الخطل الفصل بين أفكار هذا الحزب والعقائد التي يؤمن بها الناس! كطريقة وأسلوب للحياة محتشد بالنواهي والأوامر.

كان صانع الفخار يدرك أن هذه العقائد تخرج عن حدود خصوصيتها لدى تأويل حزب الحاكم العام لها، بما يخدم أغراض السلطة وأهدافها، ويؤمن لها وجودا شرعيا هي بحاجة إليه. ولذلك كان يرى الأمور بطريقة مختلفة، إذ يعتقد أن إيمان البعض أو إلحادهم هو شيء يخصهم وحدهم وفقا لقناعاتهم الفردية. وذلك أن القناعات لا يمكن حسمها بقرارات

السلطة. وهكذا طور مفهوما للحرية والاختيار شاع كثيرا في أنحاء البلاد الكبيرة، وعجل بتآمر بطانة الحاكم العام عليه!

وكان صانع الفخار عندما ينظر لكل هذه الطوائف التي أنشأتها بطانة الحاكم العام، يدرك أن البلاد الكبيرة كوطن تمضي إلى حتفها وتحل الطائفة محل هذا الوطن، الذي هي نقيضه! كانت الطائفية بمرور الوقت قد سادت، وتوارى سهل البلاد الكبيرة – الوطن.. وتفشى القمع والفقر في كل تفاصيل الحياة، منذ أن تلاشت الفروقات بين عقيدة الناس وممارسات الحاكم العام.. لم تعد البلاد الكبيرة "كوطن" تحتمل هيمنة الطوائف، التي تنذر بتهديد وتبديد كل ما هو جميل.

في قيلولاته المتباعدة، كان صانع الفخار يتكئ على جذع النيمة العجوز، على مشارف البلدة المترعة بالأسى والأحزان.. يلقي برأسه إلى الخلف، ويغمض عينيه. فيتداعى إلى فضاء ذاكرته صوت الخزين يحدثه عن الطائفية واستعبادها للناس، وانتزاعها لأحلامهم من بين تلافيف أشواقهم وتطلعاتهم، لتشيد إمتيازاتها الخاصة. وسلطتها وسلطانها عليهم! فالطائفية كحزب الحاكم العام، لا تأبه لخير المجتمع ورخاءه، بل تتعيش من تخلف الناس وجهلهم. ولتكريس ذلك تتحالف مع كل ما من شأنه القضاء على معارضيها. الذين لا تتورع عن قتلهم معنويا وإهدار دمهم بتكفيرهم وتنفيذ الحدود فيهم.. إرهابهم ومحاربة كل ما يمكن أن يجود به العقل البشري لتنمية حياتهم! إذ ترى أن ما تطرحه مقدسا، يستمد نفوذه من قدسية العقائد، وأي اختلاف معه هو اختلاف مع المقدس نفسه! وهو ما سيهدد البلاد الكبيرة بالزوال، إذ يعصف بالمجتمع، لأنه خارج وجدان الأمة!

كان الخزين يرى أن التشريع لحياة الناس، يجب أن يكون متعدد المصادر. فحياة الناس وميولهم أوسع من أن يتم تحديدها بمصدر وحيد، يتقاصر عن شمول ما بلغه العقل البشري وحياة الأهالي من تطور!

إذن تمكنت الطائفية وحزب الحاكم العام أخيرا من تحويل إنسان البلاد الكبيرة، إلى حطام إنسان فقير معدم، وضعيف تتناهشه المجاعات وينهش بعضه البعض، فكان صانع الفخار يفكر في السبيل لتحرير الناس والبلاد الكبيرة، باسترداد روحها السليبة بسبب الاستخدام السلبي لوظيفة الدولة ومؤسساتها من قبل الذين يدعون امتلاك الحقيقة المطلقة، واحتكار المعرفة بعقائد الناس. وهم في الواقع حراس للنوايا وفقهاء للظلام! الذي يسيطرون به على العقول والحياة. فيحققون أغراضهم الدنيوية، التي تتناقض مع القيم المعلنة للعقائد.

وهكذا يتم تعميم أنماط الاستغلال والاستعباد والقهر الاجتماعي كواقع لا يمكن تغييره.

لذا كان صانع الفخار منشغل البال دائما، بإيجاد السبيل للارتقاء بمفهوم للقانون، ينظم حياة الناس دون أن يهيمن عليهم.. قانون يغذي التسامح المفقود ويعيد البلاد الكبيرة إلى مسارها في التاريخ.. كان يحلم ببلاد تخلو من الدم والتطرف والانتقام.. بلاد تتقلص فيها الأنشطة الهدامة للطوائف والجماعات، و يحمي القانون شعوبها بشكل متساو.. حيث لا توتر أو اقتتال.

إذن بما تنطوي عليه منحوتاته ومخطوطاته من روح ثورية، ألهمت الحركات المسلحة في أطراف البلاد الكبيرة، كانت أفكار صانع الفخار تخيف كل الذين ارتبطوا بحزب الحاكم العام وطوائفه. فخشيوا من النتائج التي تختبئ خلفها، وهي النتائج نفسها التي حفلت بها معتقداته، حول أسئلة ذات وهوية البلاد الكبيرة. فصانع الفخار كان يؤمن، بأن العقل هو الذي سيؤهلنا يوماً ما، لمعرفة الإله المهيمن على كنائس الممالك النوبية، وأي إله آخر تقترحه الديانات السابقة أو اللاحقة.

هذا الاعتداد بالعقل، دفع رجال الدين إلى مطاردته، وتدمير ما طالته أيديهم من أعماله، بغرض أن يذكر التاريخ أنهم فعلوا كذا وكذا فيشتهرون! لكن التاريخ خيب ظنهم، ولم يذكر اسم أي واحد منهم! فظلت هذه الحقبة بحد ذاتها لغزا محيرا؟!.

فعندما توفيت الملكة النوبية (الكنداكة) أصدر كبير وزراءها أمراً بمسح اسم صانع الفخار، من كل نقوش الكنائس النوبية، وتدمير معمل صانع الفخار في "سوبا" تدميرا كاملا. كما حرمت الكنيسة النوبية صانع الفخار نفسه "حرمانا كنسيا" بتهمة الهرطقة!

وهكذا عاش صانع الفخار أيامه الأخيرة مطاردا، إلى أن تم إحراقه ذات صيف غائظ، في ساحة الكنيسة الكبيرة عند ملتقى النيلين؟.. فمات وحيدا حزينا أسيانا وآسيا دون خلف أو سلف؟!

VIII

في تلك الظهيرة البعيدة، وفي هذه البلدة المتكئة على مقرن النيلين، و بينما كان القس الذي بدا معتلا لا بسبب الاعتكاف وقلة النوم والطعام، بقدر ما كان بسبب مشاعر غامضة لا يدري كنهها، ظلت تتناهبه لأيام. أخذ القس يعد التحضيرات، مجهزا نفسه للقداس، بعد

إعتكاف دام لشهور طويلة.. تشمم رائحة غريبة، هي مزيج من رائحة أوراق الشجر المعطونة في مستنقعات البلدة الصغيرة، ورائحة روث الحيوانات!

فبدا له ذلك غريبا، فالمستنقعات كانت جافة، بسبب عدم هطول المطر أو فيضان النيل ذلك العام.. فأراضي البلاد الكبيرة كانت قاحلة.. ذبلت كل النباتات. وجفت كل الأعشاب منذ أمد طويل، وأصبحت هشيما كالهبود. لذا كان من الغريب أن تتحسس خياشيمه، مثل هذه الرائحة التي عبق بها الهواء، الذي يحيط بالكنيسة وكأنما البلاد الكبيرة، تعيش إحدى خرائفها المنصرمة، منذ زمان بعيد!.. لم يجد القس تفسيرا لهذه الرائحة.

ترك القس كل شيء ومضى لا يلوي على شيء. في طريقه مر بجمهرة من الناس، حول سجن البلدة الذي كان في مساحته أكبر من مساحة البلدة نفسها! ففكر في السجناء الذين تعاقبت عليهم الفصول دون أن يروا أهلهم!.. عبر القس إلى الفناء الذي يتوسط البلدة، حيث سوق ود أمجبو الورا السوق الصغير.. كان خاليا من المارة والدكاكين مغلقة. لم يكن هناك سوى دكانا واحدا غير مغلق.. اقترب منه.. كان مهجورا، رفوفه خالية.. ويبدو أن صاحبه هجره منذ وقت طويل، وقد عبقت فيه تلك الرائحة.. الرائحة نفسها التي حاصرت الفضاء حول الكنيسة وانتشرت في فضاء البلدة! كان شعورا غامضا هو ما يسيطر على القس لحظتها، فانحنى يصلي ليحفظ الرب البلدة، التي كانت تمضي بخطى حثيثة، نحو نهاياتها الوشيكة! كان حدسا خفيا يجعله يوقن أن ثمة هلاكا وشيكا.

وهو منقطع في صلاته عن الدنيا، سائلا الرب الغفران والرفق بشعب البلاد الكبيرة، كان متعبا.. حتى أنه أثناء صلاته، كان يغفو بين الآونة والأخرى بعينين مفتوحتين. إلى أن رأى ضوء ساطعا، وضجيجا عاليا يتخلل الضوء، الذي تشبعت به الرائحة، التي استشرت في فضاء البلدة. فأخذ كل شيء يدور أمام عينيه: الدكاكين المهجورة، بقايا الشجر الجاف، الدروب الضيقة.. لم يكن يدري كم من الزمن استمر على هذا الحال، إلى أن أنتبه أنه لا يزال في فناء الكنيسة، التي لا يدري كيف عاد إليها؟ بل انتابته الظنون أن كل ما حدث ربما هو أضغاث أوهام!

كان الهواء المشبع بتلك الرائحة يجرح رئتيه، فيشعر بالألم والضيق. عند دخوله إلى حيث يقام القداس، كان يعرف كما ظل دائما يعرف أنه بين يدي الرب. فإذا خطرت بباله فكرة ما، كالخواطر التي تشعلها هذه الرائحة، التي هيمنت على كل شيء، تحول الخاطرة، دون تركيزه في الصلاة. و لهذا السبب لم يقدر على إكمال طقوس القداس، فمضى يخلع ملابسه

و يغلق عينيه، عسى أن ينام فتهدأ خواطره!

تناهت إلى مسامعه أصوات مختلطة.. متزاحمة في بعضها البعض، فارتدى ثيابه على عجل. وخرج. كان أهالي البلدة كأنهم ينشقون من جوف الأرض. يتزاحمون حول الكنيسة. أخذ يستعرض وجوههم إلى أن توقف عند صانع الفخار، الذي كان مقيدا يرسف في الأغلال.. يحاصره رجال الحاكم العام من كل جانب.. توقف يتأمله طويلا..

بدا له صانع الفخار أنيقا في ابتسامته، التي لا يتغشاها الخوف أو الوجل.. كانا يعرفان بعضهما، فصانع الفخار الذي كان ينتظر المصلين لدى خروجهم من الجامع ظهيرة كل جمعة ليخطب فيهم، كان يفعل الشيء نفسه بالخطبة في المصلين أيام الآحاد، الخارجين لتوهم من الكنيسة، بعد فراغهم من صلاتهم. كان القس يستمع إلى خطبه باهتمام ثم يهز رأسه وينفلت إلى داخل الكنيسة، إذ كانت خطب صانع الفخار، التي تخلو من الغيبيات تذكر القس بفخار المعابد القديمة. مع ذلك كان يحب مبالغتها في رصد حياة الناس. فهم أنفسهم لا يدركون حجم ما يعانونه! لذا كان يعتقد أن من الخطل تبصيرهم بذلك وجعلهم يتذوقونه، ولهذا السبب بالذات حرص في صلواته أن يستخدم كلمات ورموزا عاطفية إيمانية، تطمئنهم أن كل شيء على ما يرام وأن الله إذا أحب العبد أبتلاه! وأن الفقراء يدخلون الجنة! وأن المغرضين وحدهم من يريدون تصوير الحياة لهم بعيدا عن ملكوت ورحمة الرب الذي تقدست أسماؤه في الأعالي.. فالأرض ملأى بثمار الحب والسلام وما عليهم سوى قطفها؟!

كان كلاهما – صانع الفخار والقس– يعلمان أن القس كاذب أفاق مثله مثل إمام جامع سوق ود أمجبو.. إذ يستغلان عقائد الأهالي البسطاء، التي تجذرت بأسرارها في القرون البعيدة!

لذا في تلك اللحظة الفارقة، التي أدرك فيها القس أنها اللحظة الأخيرة، لصانع الفخار قبل أن يغادر الحياة، إلى حيث الأعالي، ليسبح في النيران السرمدية المفزعة، جزاء أفكاره الشريرة التي تريد تغيير الناس!

في الحقيقة لحظتها كان صانع الفخار يفكر على نحو مختلف، فمن قلب وحدته البديعة في التاريخ، وهو يحاول تحريك يديه المغلولتين كان يرى كل شيء مختلفا، وهو يشعر بدنو الأجل للقاء أجداده من صانعي الفخار العظام حيث الأنهار الفريدة للخمر واللبن.. كان

مظهره ملفتا للنظر في هذه اللحظة بالذات أكثر من أي وقت مضى. بشعره المجعد الغامق، ووجهه الدائري الذي اختفت منه الغضون والأخاديد التي لطالما برع الدهر في رسمها. شفتاه النديتين رغم يباسهما، حتى عيناه كانتا ثاقبتين رغم الشحوب الذي لاح عليهما بشكل غير مألوف.

"كان شكله حقا ملفتا للنظر".

هكذا ظل القس لسنوات عديدة يتنهد أثناء خطبه المكرورة التي لم يعد أحد يأبه للصلاة في الكنيسة لسماعها.. هكذا كان يتنهد كلما خطرت سيرة صانع الفخار، التي لا تخطر على باله إلا أثناء إلقاءه الخطب، كان شبح صانع الفخار يطارده أثناء خطبه المكرورة بتلك الهيئة غير المألوفة في تلك اللحظة الفارقة بين عالمين.

الأهالي الذين كانوا متحلقين حوله في تلك اللحظة، كانوا يجزمون فيما بعد، بأن العسس عندما أشعلوا فيه النار بدا غارقا في مطر العينة الغزير..

"كان مشرقا يرفل في سعادة خفية كما لو كانت النار تغسله من كل خطايا البلاد الكبيرة".

في اللحظة التي أعدم فيها صانع الفخار حرقا، اختفى الخزين ود طبلة، كأنه لم يكن جزء من نسيج هذه البلدة المعذبة يوما، ثم لم تلبث أن تواترت عنه الأخبار فالبعض يقول أنه رآه أثناء نومه:

"لكن وجهه كان يشبه شيئا لا شبيه له"

البعض الآخر ممن زعموا رؤيته في سرهم، تكتموا على الأمر ولم يفصحوا عنه، إذ كانوا يحاولون جهد طاقتهم تجنب تحقيقات عسس الحاكم العام وحزبه الوطني، فكانوا يتدربون على أنفسهم في القيام بدور المتحري..

لو أنهم ذهبوا إلى العسس لما تغير شيء في المسألة، إذ ليس بإمكانهم تقديم أي حقائق عن رؤيته أو المكان الذي يختبئ فيه الآن أو آخر مكان رأوه فيه قبل أن يبلغوا العسس! إذ ليس لديهم أي براهين أو دوافع محددة فهم ليسوا على ثقة حتى من أنهم متعاطفين معه ومع صانع الفخار أم حانقين عليهما؟! كما أنه كان قد تولد لديهم انطباع عام – مثل كل الأهالي– باللامبالاة وبلا جدوى أي شيء. فعندما يفكرون في الأسباب، التي تجعل العسس يجدون في البحث عنه، لا يتمكنون من إيجاد إجابات شافية، فيرمون برؤوسهم إلى الوراء

وهم يتنهدون:

"على أية حال الخزين هو الوحيد الذي يملك أدلة براءته"

كانوا في حالة من البلبلة جعلتهم لا يميزون، أو يخطر على بالهم سؤال:

"البراءة من أي شيء؟ وماذا فعل ليدان؟ أي تهمة؟"..

إذ كان يبدو أن سكان البلدة قد أصيبوا بالخبال، وهم يرون صانع الفخار يرحل محترقا في كنيسة توتي، ورماد عظامه يغطي سطح النهر، فيسد القناة التي تقرن النهرين.

بعيد إحراق العسس لصانع الفخار، والاختفاء الغامض للخزين. شدد العسس من مراقبتهم أكثر من ذي قبل.. كان الجميع يراقب الجميع كل لحظة. في البدء حاول الأهالي التعبير عن استياءهم وسخطهم من هذه الدوامة، التي كانت تشدهم للقاع. لكن مع اشتداد القمع كانت همتهم قد فترت، وشعروا بأنهم تقدموا في العمر كثيرا! بل أخذوا بمرور الوقت يعتادون الأمر، ولم يعد أحد يأبه لما يجري في البلدة، التي توشحت البؤس والحزن المقيم. فالعسس كمخلوقات فظة ووضيعة، تمكنت من زرع كل أنواع المخاوف والظنون، في الوجدان الهش لأهالي البلدة البسطاء! بعد أن تربصوا بهم في كل مكان، بكل ما كانوا يضمرونه من أحقاد وضغائن ضد المعارضين.

مع ذلك ثمة شيء واحد كان يهيمن على فضاء ذاكرة الأهالي الطيبين من آن لآخر: شبح صانع الفخار الذي ظل يطاردهم طوال الوقت.

IX

عندما تناهى إلي مسامع صغرى زوجات الحاكم العام، خبر مقتل صانع الفخار، واختفاء الخزين على نحو غامض، كانت لحظتها عائدة للتو من إحدى رحلاتها السياحية خارج البلاد الكبيرة. برفقة عدد من حرسها الخاص. كان أول شيء فعلته بمجرد وصولها قصر الحاكم، أن دخلت إلى جناحها، وأخذ تتفقد كل شيء حولها لوقت ليس قصير، ثم أطلت برأسها من إحدى نوافذ الجناح. تتحسس الهواء الذي كان مشبعا برائحة الحريق والعطن.

كانت الشمس تحط فوق أسطح، المنازل في أزقة البلدة القديمة.. وعلى نوافذ أجنحة القصر حطت طيور السمبر العرجاء، التي جاءت في غير مواعيد هجرتها. تنهدت زوجة الحاكم

بشجن. وتراجعت إلـــى داخل جناحها. وقد خيم على فضاء القصر صمت يشعل فيها الإحساس الغامر بالانقباض. صبت لنفسها كأسا من البنقو المغلي، وجلست تحدث نفسها حينا وتسرح في خيالها حينا آخر في انتظار الحاكم العام، الذي لم تشعر بالوقت الطويل الذي مر، عندما دخل عليها بادي الإنهاك والإعياء.

سرعان ما خلع ثيابه واستلقى إلى جوارها، وغط في نوم متقطع. محاصرا بكوابيس أرواح ضحاياه. وهو يتمتم باسمي جادين والخزين.. فأخذت تحاول أن تتذكر وجهي الرجلين لكن كانت محاولاتها تبؤ بالفشل. إذ كان الوجه الوحيد الذي يهيمن على فضاء ذاكرتها لحظتها، هو وجه الحاكم العام. الذي ارتسم عليه كل رعب الدنيا ومخاوفها.

في هذه اللحظة التي كان الحاكم العام يعاني فيها كوابيسه المدمرة، بدا وجهه كوجه حرباء طاعنة في السن، تعاني نزعها الأخير، على أهداب موت وشيك لا يمكن تجنبه! فانطبعت هذه الصورة التي لا تنسى في ذاكرتها وإلى الأبد!

إذ لسنوات طويلة بعد مقتل الحاكم العام، الذي وجد مختبئا في أحدى حفر البلدة القديمة، إثر هبة شعبية مباغتة. لم تعد تذكر تلك الأحاسيس، التي كانت تنتابها، عندما تتواثب رغباتها في حذر وجنون. فتلتف حول شعلة النار المتأججة داخلها. بعد مرور سنوات.. كل أشواقها السرية ستخمد وتنطفئ، كأنها كانت تستمد جذوتها من شعور الحاكم العام بالحياة والطمأنينة!

قبل أن يحدث لها ما حدث بوقت طويل، كانت عندما تنهض من فراشها في الصبيحات المتأخرة، لتستحم وتتجمل. بينما كان الحاكم العام يقف طوال الوقت يراقب جسدها وعينيها بعذاب لذيذ. في أيامها الأولى بالقصر، كان يطيب لها وهي بقميص النوم، أن تتأمل نفسها في جناحها الذي يعج بالمرايا. وفى الواقع لم يكن هناك ثمة داع للنظر في المرآة، إذ كانت تتمتع بقوام جيد، ونِسَب ممتازة للجسد و الوجه، الممتلئين. اللذان دائما يبدوان كسلانين، عندما تقع النظرة العابرة على جفنيها اللذان يبدوان مرتخيين، يكادان يقعان على العينين فتبدوان ناعستين، لكن خاليتان من حشمة الزوجات.

وما أن تفرغ من تأمل جسمها، حتى تأخذ حمامها المعتاد. تجفف نفسها. ثم تجلس لتضع مساحيق التجميل بعد أن تسرح شعرها. تفعل ذلك بنفسها، إذ كانت تكره الاستعانة بالوصيفات، وتفضل خصي القصر في التدليك. وأحيانا كانت تطلب من الحاكم العام أن

يؤدي هذه المهمة بنفسه.

وبعد أن تفرغ من زينتها التي كانت تستغرق وقتا طويلا، تحتسي فنجانها الأول من البنقو المغلي، الذي كانت تفضله دونا عن جميع المشروبات. وهكذا بعد كل هذه المجهودات الجبارة، التي تبذلها عندما تصحو من النوم، إلى أن تحتسي فنجان البنقو المغلي، تشعر بأن الإجهاد والتعب العظيمين نالا منها. فتغفو قليلا في مقعدها الممتد الطويل. لكن لا تلبث عند الظهيرة أن تدهم خياشيمها في تحد جسور، رائحة البنقو المغلي التي تضوع في كل زوايا وأركان أجنحة القصر، إذ تكن لحظتها زوجات الحاكم العام الآخريات، قد جلسن لشرب بنقو الظهيرة المغلي. بعد أن قضت مضجعهن ببنقو الصبيحة المتأخرة.

تنضم إليهن. تصب لها إحدى الوصيفات فنجانا.. فتتداول معهن بعد ذلك ما تناقله الحرس والوصيفات والعسس من أخبار البلدة القديمة. الغارقة في مؤامرات اقتلاع الحكم وصراع مراكز القوى. كانت أسوأ أوقات يومها كله، هي تلك اللحظة التي يستلقى فيها الحاكم العام إلى جوارها. وهو يعوي ككلبة ينتابها مخاض ولادة متعسرة.

كانت ترى نفسها بطريقة فيها نوع من العزاء، إذ تعتقد في دخيلتها أنها وبعد كل ما شهدته حياتها من مآسي، ونكبات. لا تزال صامدة وتقاوم ظلم الحاكم العام على طريقتها.

تحدق في جسمه اليابس الممدد إلى جوارها. أثناء عوائه. ثم تنقل بصرها عبر النافذة إلى فناء القصر، الذي شهد ملايين المؤامرات الفظيعة، التي لن يبقى منها شيء بعد وقت طويل. فقد كانت.. ببساطة.. تشعر في قرارة نفسها، ومنذ أن وطأت أقدامها قصر الحاكم العام للمرة الأولى، أنه رجل يتأهب للرحيل! لذا كل ما فعلته خلف ظهره، بدا لها قدرا لابد منه! خاصة عندما يبدأ شبح زوجها السابق المرحوم، الذي غدر به الحاكم العام، في سرية تامة. تطاردها..

في الليلة الأولى التي تلت مقتل صانع الفخار، كانت صغرى زوجات الحاكم العام تحتفل على طريقتها، وهي تنظر في هدوء تتأمل جدران جناحها.. تمر بنظراتها على جسمه الفارع ثم تخطف، بصرها لترمي به عبر النافذة. ترتبك.. ترد بصرها، ثم ترفع عينيها بينما كان هو يملي عينيه في كل تقاطيعها.

كان سبب ارتباكها ليس الإحساس بالخيانة، بل شعورا غامضا لا تدري كنهه. ربما تشعر للمرة الأولى، أن كل ما تنعم به من حياة، في طريقه إلى زوال وشيك. فتنهض من بين

أحضان الحارس ترتدي ثيابها وتدخل إلى الحمام.

كانت لا تألو جهدا في مقاومة مشاعرها.. رغباتها.. أفكارها.. دون جدوى.. عندما يخطر على بالها، مدى اهتمام الحاكم العام بها ومحبته ولطفه، وشعوره المزمن بالتفاني في تعويضها زوجها المغدور!

X

لم يمض وقت طويل على مقتل صانع الفخار، حتى تم اكتشاف معمل ثان في "الكوة"، لكنه أيضا دمر على يد كبير الوزراء.

مخطوطاته ورسوماته بيعت مقايضة بالملح للتجار القادمين من مالحة.. العابرون إلى أقصى دار صباح عند البحر الملون.. هذه المخطوطات تمت عملية تحديد أماكنها، على عهد الإحتلال التركي المصري في كل من سوبا، الكوة، دنقلا، جوبا، أبيي، القلابات، الفشقة، حلايب وشلاتين، بني شنقول، قيسان، الروصيرص، الفاشر ومليط وكامل أراض فوربرنقا.

وخلال عهد حكومة "السودنة – الإستقلال" تمت محاولة البحث المكثف، عن وثائق تظهر تصاميمه ومخططاته من قبل بعثات فرنسية. فظهر وقتها إسم "صانع الفخار" للمرة الأولى، كأحد عباقرة البلاد الكبيرة، الذين عبرت أعمالهم عن روح عصر متحفز، ظل يتكون في التشظي لآلاف السنوات؟!

تصاميم أغلب هذه الرسومات، ما تزال غير واضحة، كما أن لغة المخطوطات المزيج من لغات عدة، جعلت من الصعب فك شفرات الرموز. على الرغم من ذلك ألهمت المهمشين بعد مئات السنوات، الإجابة عن سؤال الذات الذي ظل يؤرق صانع الفخار؟!

من الوثائق التي فشلت الحكومات المتعاقبة، وحلفائها وخلفائها، في إخفائها وتسربت للعلن. تلك الوثيقة التي ترصد أوجه الحياة الاجتماعية والثقافية والفنية والسياسية.. وكل الأنشطة، التي حفلت بها الممالك القديمة، في دار صباح والسافل ودار الريح والصعيد، عندما ثبتت المسيحية أقدامها، في دار صباح القصوى و السافل والوسط؟!

بينما ظلت كل الوثائق، التي اكتشفتها البعثات المتعاقبة، منذ العصر التركي المصري، وحتى عهد الفريق عبود، تختفي في ظروف غامضة، وتظهر هنا وهناك على نحو

متباعد، في متاحف العالم ودور وثائقه، والمجالس السرية والمعلنة لأهل الحكم والثقافة والسياسة والأدب، في البلاد الكبيرة.

بل أن الوثيقة الوحيدة، والتي هي "حجة في شكل حكم البلاد الكبيرة وكيفيته"، والتي كانت موجودة في دار الوثائق المركزية بالخرطوم، تمت سرقتها (من قبل أحد سياسي البيوتات في البلاد الكبيرة) واختفت في ظروف غامضة، دون أن يبين لها أثر؟!

وهكذا ظلت أعمال صانع الفخار، غير منشورة بشكل رسمي، تبعاً لمنع أيديولوجي من نشر اسمه وتاريخه. وإرثه القومي، وخصوصاً خفايا أعماله. ما يؤكد أن هناك مؤامرة دائمة ومستمرة لاحتوائها أيديولوجيا، لإخفاء أفكار أصيلة، و اختراعات كثيرة سابقة لعصرها، وكل الدلائل تشير إلى أن كل ما يتعلق بصانع الفخار من سيرة ومسيرة، محفوظ بسرية تامة من قبل الأمن والمخابرات، و مفوضية أحزاب البلاد الكبيرة التي تتكون من الثلاثة الكبار، الذين يحلون ويربطون ويتحكمون في تاريخ وحياة البلاد الكبيرة على كيفهم؟!

صانع الفخار منذ طفولته الباكرة، استهواه تشكيل الطين، فهو لم يخلق من النور أو النار، بل من الطين! لذا ظل دائم الحنين لمصدره الأول؟!. كما ظل دائم الخوف على هذا المصدر، الذي يتأثر دائما بمناخ البلاد

الكبيرة المداري، والذي يتميز بارتفاع درجات الحرارة معظم أيام السنة.. وتدرجه من جاف جدا في أقصى السافل، إلى شبه الرطب في أقصى الصعيد. حيث تصل درجات الحرارة أقصى معدلاتها في فصل الصيف، و حيث يصل المعدل اليومي في بعض الفترات، إلى جحيم لا يطاق في الصعيد.

الأمر الذي يجعل الطين حزينا متشققا عن أساه!.. ظامئا ومتوجعا.. لا تهدأ آلامه إلا بهطول الأمطار التصاعدية، التي تتحكم في حركة الفاصل المداري، والتي يتصف بها سهل البلاد الكبيرة، باستثناء ساحل البحر الملون حيث المطر الشتوي، يداعب التربة المالحة، فيمنحها شيئا من البوح المبتل بالدموع!

أكثر ما كان يؤرق صانع الفخار من هموم، هو سيادة سمات الصحراء في السافل، والهطول المتقطع للأمطار في دار الريح. وتكرار موجات الجفاف، التي تتفاوت في طولها وحدتها، ما يجعل الطين حزينا وبائسا ويابسا ومكتئبا وكئيبا! لولا إشفاق البحيرات

الداخلية والأودية الموسمية عليه، لذرته الرياح في فضاء الكون الواسع، وأصبحت البلاد الكبيرة محض فراغ!

كانت نقطة البداية في الطفولة البعيدة الغابرة، هي وقوفه لساعات طوال أمام هيبة الطين.. غموضه.. مرونته.. سيولته و قدرته على التشكل الفائق.. وكثيرا ما توقف أمام نفسه كمخلوق من طين، وسرحت أفكاره في العالم اللانهائي للطين، إلى أن أصبح الطين منهجا يتحكم في عالمه، يصنف عبر نوعيته وهشاشته وصلادته: أنواع الناس وأحوالهم والأشياء ومعناها والأماكن وقيمتها، وكذا العلاقات المقيمة والأخرى العابرة! بل وأحيانا أصدقاء العلاقة الذين "يقفزون" على العلاقة ذات نفسها، فتروح الصداقة هدرا!..

هكذا إذن فتحه الفخار على عالم لانهائي.. لا محدود.. عالم مسكون بالحقائق وأنصافها وأرباعها، كما هو مسكون بالقدر ذاته بالهواجس والظنون والجنون!

"أنه صانع الفخار" أو كما بدأ أقرانه يطلقون عليه، وهم يلحظون اهتمامه المتزايد بتشكيل الطين..

خلال سنوات طفولته وصباه، تجمعت لديه مقتنيات ذات أشكال عديدة من صنع يديه.. أشكال لبشر وحيوانات.. أزيار وأقداح صغيرة.. و..و أشكال حلمية هو نفسه لا يدري لماذا صنعها، ولا إلى ماذا تشير أو ترمز بالضبط؟!

كانت غبطته لا توصف، عندما يأتيه أقرانه الأطفال والصبيان بطينهم، ليصنع لهم منه شيئا ما..

في مراهقته أخذت أفكاره عن الطين، تتخذ منحى يليق بقلق المحاولة الأولى لاكتساب المعرفة، واكتشاف العالم. فنالت اهتمامه أنواع محددة من الطين: طين الغابات على ساحل البحر الملون.. غابات القرم (المانقروف) التي تنمو في الخلجان والشعب المرجانية، التي تأوي أصنافا متعددة من الحياة البحرية النادرة. وطين الجزر الرملية ذات الطبيعة الساحرة وطين أم درمان الصلد، وتلك الأنواع من الطين، الذي تزخر به البيئات المائية العذبة والمالحة.

والطين الرسوبي في السافل، وطين حوض تكوينات أم روابة، وهكذا وجد نفسه ينزلق في الطين إلى دهاليز الجغرافيا و التاريخ وأقبيتهما. فامتداد سهل البلاد الكبيرة عبر ١٨

درجة من خطوط العرض، وتباين أحوال المناخ والطبوغرافيا، أدت جميعها إلى تباين النباتات الطبيعية وتنوعها، وأسهمت في تعدد وتباين أنواع الطين؟ فكان يستخدم كل نوع من الطين للغرض الذي يلائمه!

فالأقاليم النباتية، المتدرجة من الصحراء في السافل، إلى الغابات المطيرة في أقصى الصعيد و دار الريح، أدت لكل هذا التنوع الطيني وأثرت فيه كما أثر فيها.

لم يكن ما لفت نظره حقا أن استخدام الطين، في أعمال الفخار والخزف مجرد محاولة أولى، لإشباع غرور الجنس البشري، في مشاركة الخالق أعماله ومهامه الجسيمة؟!..

أصداقا للقول.. بل هي الجرأة على منافسته، على طريقة الضالين المغضوب عليهم، وغير المغضوب عليهم، أيضا! في الحقيقة والواقع الأعم!.. كيف؟!

عن طريق حرق الطين وصقله في "الكمائن والهوانيب"، تماما كما كان حال أبو البشر آدم –حسب الروايات الدينية– لحين من الدهر، تهطل عليه أمطار الفرح حينا وحينا أمطار الحزن..

إذن هكذا اكتشف – صاحبنا– النيل والخصوبة والحياة، اكتشف عالما كاملا متكاملا، جزيئاته تترابط في حبيبات الطين بسيولة النهر، لتعبر عن نفسها في الخلود الهش؟! تبدأ بالزير وتمر بالمبخر، وتنتهي عند كل ميلاد بشري جديد، بكل ما يحمل هذا الميلاد من خصوبة ونماء في حفرة الدخان!

للطين ذاكرة ووجدان يحتفظان بآثار العصور الغابرة: فلكلورها، سير أهاليها وأسلافهم الصالحين.. مسارات صعودها وهبوطها.. أحاجيها وحكاياتها الشعبية.. ذاكرة ووجدان يحتفظان برائحة وعرق وملمس أصابع صانع الفخار، وهي تتنقل مخلخلة هذه الحبيبات الناعمة، لتصوغ منها شكلا ما، ربما هو فكرة في خاطر غامض، قد تفصح عنه العصور اللاحقة، ليكشف المزيد من أسرار ما قبر!. وربما..

XI

موقع السوق الورا، موقع غريب وفريد.. فهو كيان مذهل! يتصل بالبحر والأنهار، حيث دلتات الطين الصلصال.. باختصار: السوق الورا ظل عبر تاريخه، ملتقي لطرق العالم القديم والجديد.. هذا الموقع المميز جعله مركزا حيا لتجارة الفخار، بالتالي انتقال مركبات

الثقافة والأديان والسحر والدجل والشعوذة والعادات والتقاليد و.. والأعراف و الطرق الصوفية، والطوائف الدينية، فيما بعد.

تجد في السوق الورا كل شيء بدء بالمشغولات الذهبية، وصناعات الحديد والألمونيوم والكوانين، مرورا بصناعات السعف وكناتين الكول، والتوابل والمأكولات الشعبية، وجزارات الكمونية واللحوم والأسماك والدواجن..

هكذا إذن نشأت علاقات تجارية وثقافية وسياسية معقدة، مركزها السوق الورا منذ الأزل. حيث كان القدماء يطلقون على السوق الورا تسمية "أرض الأرواح أو مقابر ود أم جبو أو أرض الله" لشدة انبهارهم بهذه الكيمياء العجيبة، التي تربط الآخرين.. كل الآخرين به- خصوصا علاقة الأحياء بالموتى والبعاعيت- وتجعلهم يتفاعلون مع الحياة التي تتصل به.

شعوب البلاد الكبيرة اعتادت السكنى حول السوق الورا، منذ العصور الحجرية. حيث أتخذوا أولى خطواتهم نحو الحضارة. فقاموا بصناعة الفخار واستعمال المواقد والنار للطبخ. وقتها كانت البلاد الكبيرة التي يعتبر السوق الورا حاضرتها، مركزا لحسد الجوار وأطماعهم. التي ترتبت عليها غزوات واحتلالات واقتطاعات في الجغرافيا، خصوصا في العهد الذي سبق الحضارة الكوشية، حيث حاول الغزاة القادمين من مصب النهر، فرض لغتهم وثقافتهم؟!

وكان الحال هكذا أيضا على عهد الهكسوس. والعهد المروي، أي استمر الاستهداف العنيف والمباشر في المرات الأولى، حتى القرن الرابع الميلادي. عندما ازدهرت تجارة الصمغ والعاج والبخور والذهب، بين الغزاة المحتملين وبين السوق الورا.

السوق الورا كان غريبا بين الأسواق، في كل العصور خصوصا عصري الذهب الأبيض والأسود، فهو منذ القدم ظل متصلا بدول ما بعد الصحراء الكبرى، وبلاد النجاشي.. بل كان متصلا حتى بهند بوذا؟! كما أن هوميروس أكد بشدة، أن الآلهة يجتمعون كل عام في هذا السوق في عيد التنصيب السنوي، يتبادلون الأنخاب والأفكار؟!

لكل هذه الأسباب التاريخية، كان العشاق لا يصبحون عشاقا تاريخيين، إلا خلال علاقاتهم الناشئة في الكيمياء العجيبة لهذا السوق!.. وهكذا تكرست علاقة منصورة بجادين، خلال حياة هذا السوق!

XII

صانع الفخار كان هو أول من تنبأ، بوجود الزيت الأسود، تحت الطبقات القصوى للطين، خلف السوق الورا، عند مقابر ود أمجبو.. وفي مواقع أخرى مختلفة، من سهل البلاد الكبيرة الواسع، لكن هذه النبؤة تم التواطؤ عليها عبر الحقب المتعاقبة، ولم يماط عنها اللثام إلا في وقت متأخر..

وفي الحقيقة لم يتنبأ صانع الفخار بوجود الذهب الأسود فحسب فقد سبقت نبوءته هذه، نبوءات عديدة ترتبط جميعها بمكنونات الطين، وما ينطوي عليه من معادن عديدة، في الأنحاء المتفرقة لسهل البلاد الكبيرة الواسع.

وأجمعت كل هذه النبوءات أن جشع الحكام واستبدادهم وطمعهم وفسادهم، سيؤدي للاقتتال على مكنونات الطين، ما يضع السهل كله في مهب الريح السموم، فيتحول الطين إلى ما هو أسوأ من الحصرم.

الآن بعد كل هذه العصور،عندما ينظر "جادين جانو" إلى ما توفر بين يديه، من نبوءات يشعر بغصة في حلقه، فالتواطؤ على نبوءات مكنونات الطين، أدى إلى انفجار هذه المكنونات، فتبع ذلك الحروب و الفقر والجوع، والتدهور البيئي وتمزق السهل الواحد، إلى سهول عديدة!

XIII

كان الطين إذن هو نافذته التي يطل منها علي تاريخ البلاد الكبيرة، في عصورها الغابرة وعصرها الحالي ومستقبلها.. بعد مئات السنوات.. عندما يولد جادين جانو، ذات صبيحة مشبعة بدعاش النيل النديان.

لذا وهو يرى الماضي والمستقبل متزامنان في حاضره، اهتم بالبحث في مفردات هذا الماضي، فعلم من الأدوات الحجرية، التي عثر عليها أثناء تسفاره وتجواله وتنقلاته، في سهل البلاد الكبيرة الواسع. أن الإنسان سكن هذا السهل في الخرطوم القديمة في عصر الحجر. وأن هذا الإنسان كان جنساً زنجياً يختلف عن أي جنس زنجي يعيش اليوم. وقد اتخذ أول خطوة معروفة نحو حضارة السهل. وكان ذلك بصناعة الفخار واستعماله.

وأن أحفاد هذا الإنسان، كانوا مغرمين بالبحث في الطين.. فقادهم البحث لاكتشاف

النحاس، الذي قاموا بتعدينه، وصناعة العديد من الأدوات و المشغولات منه.

XIV

إذن هذا الإنسان ظل على الدوام مستهدفا من الجوار، على حدود السافل. ما قاد للاحتلال الفعلي لجزء من أراضي السهل أسفل النهر. إذ تمت السيطرة على منطقة "سمنة" التي بنى فيها الغزاة ستة عشرة حصنا منيعا.

أحفاد هذا الإنسان نفسه شيدوا حضارة كرمة، التي تدل تنقلاته في أرجاء السهل وما عثر عليه من جداريات ومنحوتات في الكهوف والجبال المحيطة، أن أحفاد الغزاة الأوائل، حرصوا على تشييد مركزا تجاريا كبيرا فيها، كان لوجوده أثر كبير في المصاهرة وانتقال مركبات الثقافة..

وما لاحظه في بحثه عن "كرمة" الفخار الممتاز، الذي سيعرف بعد مئات السنوات ب"خزف كرمة"، والذي يُعتبر أجود خزف عُرف في وادي النيل، منذ فجر التاريخ.

الأحفاد المتعاقبين للغزاة الأوائل، على عهد الهكسوس، وجهوا همهم إلى بلاد النوبة. وشرعوا في تنفيذ سياسة توسعية تجاه البلاد الكبيرة. إلى أن تمكنوا بعد سنوات طويلة، من احتلال أجزاء واسعة من السهل أسفل النهر، وحتى الشلال الرابع لمدة ستة قرون. استنزف الغزاة خلالها الكثير من موارد البلاد الكبيرة المتعددة مثل الذهب، خشب الأبنوس، سن الفيل، العطور، البخور، ريش النعام، الفهود وجلودها، الزراف، كلاب الصيد والماشية.

وفي هذا العصر بلغت البلاد الكبيرة أقصى درجات رُقيها. إذ أزداد الرخاء واتسعت التجارة بين البلدين وطُبعًـــت حضارة سهل البلاد الكبيرة، بطابع الجوار أسفل النهر.

قرون الاحتلال الستة أثارت الوعي القومي، لأهالي سهل البلاد الكبيرة. ونبهت السكان الأصليين، إلى أهمية بلادهم وكثرة خيراتها. فاستغلوا أول سانحة لاحت لهم، وهي تدهور إمبراطورية الجوار أسفل النهر. فأعلنوا استقلالهم. و وأقاموا عاصمة لمملكتهم المستقلة في "نبتـــه" الواقعة أسفل الشلال الرابع.

بل وتمكنوا فيما بعد من احتلال الجوار أسفل النهر، وإخضاعه وتأسيس دولة قوية امتدت من البحر المتوسط، حتى مشارف الحبشة لمدة تزيد عن الثمانين عاما.

وهكذا صارت كوش قوة لا يجهلها أحد. ولكن عندما غزا الجوار أسفل النهر الآشوريين، واستخدموا الحديد كسلاح فاعل في ذلك الوقت، أجبروا "كوش" على التراجع إلى الوراء، داخل حدودها الأصلية، ضمن سهل البلاد الكبيرة الواسع المتسع.

وبانتقال العاصمة من نبتة إلى مروي، ازدهرت صناعة الفخار والحديد، حيث كان العابرون يرون في مروي أكوامـــاً عالية هي أثار فضلات الحمم، التي كانت تخرج من أفران صهر الحديد. ولهذا السبب ستوصف بعد مئات السنوات ب "برمنجهام أفريقيـــا القديمة"، لتستمر كحضارة أفريقية لما يزيد عن الثمانية قرون. تنشر النور حولهـــا من عقائد وأفكار وقدرات فنية.

عندما اعتلي عرش النوبة ملك يُدعي "داود" عام ١٢٧٢م قام النوبيون بالهجومٍ على المدينة العربية "عيذاب"علي ساحل البحر الأحمر. محاولة منهم لدحر الغزاة العرب، من أراضي السهل الواسع جهة دار صباح.

بعد ذلك دخلت مملكة النوبة في عهد المؤامرات، واستمر الحال هكذا إلي أن انهزم "كودنيس" أخر ملك علي مملكة "دنقلا" عام ١٣٢٣م، وانتهت الدولة المسيحية، وصارت البلاد مفتوحة أمام الغزاة العرب وانتشر الإسلام.

أمـــا مملكة علوة، فلم تحمل جداريات ومنحوتات صانع الفخار، معلومات تذكر بشأنها، عدى الشذرات التي أفادت أنها، ستسقط عام ١٥٠٤م على يد تحالف العرب العبدلاب القواسمة والأفارقة الفونج.

بينت حضارة كوش أنها غربلة أفريقية للآراء والأساليب والمعتقدات، تأخذ منها مـــا ينفعها وتضيف إليها مـــا ابتدعته. إلى أن دهمها الخطر من جنوب الجزيرة العربية، عندمـــا هاجر قوم من هناك إلي داخل الحبشة، وأنشئوا دولة أكسوم، التي قويت واستطاعت أن تحول بين كوش وشرق القارة الأفريقية والمحيط.

وبالتدريج تمكنت هذه الدولة من قـــهر كوش عندمـــا قام "عيزانا" أول ملك مسيحي لها بـــغزو كوش وتحطيم عاصمتها مروى عام ٣٥٠م.

إذن في الأصوات المتلاشية لحطام مروي، كانت دار الريح ترجع الصدى، وتتململ لتفصح عن ممالكها الصغيرة، المتناثرة في جعرافيا الوديان، كجزر في أرخبيل واسع..

والتي فيما بعد وعلى أنقاض هذه الممالك. ومنذ ١٤٤٥ أخذت تشكل سلطة الإقليم الموحد، بنظامه الإداري الواحد، الذي لا يستتثنى شبرا من أرض دار الريح، التي هي خمس مساحة البلاد الكبيرة، قبل انفصال الصعيد.

وبعد عشرات العشرات من السنوات، لدى استيلاء كل حاكم عام –سواء كان محليا أو أجنبيا– على السلطة في البلاد الكبيرة. كان لا يؤرقه شيء سوى دار الريح. التي تناقضت على الدوام مع "مركزية سنار" بالتالي "أمدرمان". فدار الريح بسلطتها الواحدة وإقليمها الواحد الموحد، ليست مجرد جغرافيا يتشكل داخلها سؤال السلطة–ففكرة الجغرافيا الواحدة الموحدة– صارت بمرور الوقت كالعقيدة في وجدان السكان الأصليين، بالتالي حجر عثرة أمام مخططات الحكام العامين التقسيمية، التي تهدف لإضعافها بالتفتيت. ليؤول هشيمها إلى سيطرتهم الكاملة. ولذلك عمدوا لإزاحة أهل الدار، وإحلال وافدين محلهم باسم العرق كعامل تفتيت فاعل، بعد فشل عامل الدين والمصاهرة في تدمير اللغات والثقافات المحلية. وهكذا معادلات السياسة أفضت في النهاية إلى أثننة كافة أنشطة الحياة.

ما أصاب الناس بالفزع.. ففي كل يوم يمر يتكشف لهم الحجم الكبير للمؤامرة، التي تتعرض لها البلاد الكبيرة وخصوصا دار الريح! وهكذا بدأ الأهالي يتسللون إلى الفيافي والغفار والغابات، يحملون السلاح، مفتتحين فصولا دامية من حرائق الأرض والتاريخ، على أنقاض الادعاءات الدينية والعرقية.

(انتهى الجزء الأول– آلام ذاكرة الطين)

ويليه:

الجزء الثاني: (مقاطع من سيرة المقدس سره)

الجزء الثالث: (خريطة الطريق)

برينسس آن– أيوا سيتي– سيدار رابيدس

٢٠١٢-٢٠١٣